بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلي البحث

الحمد لله رب العالمين ، علي نعمة الحمد ، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد بن عبد الله – صلي الله عليه وسلم– الأمي الذي علم المتعلمين ، فحازوا بعلمهم ما حازوا من سؤدد ومجد وبعد :–

فزكريا – عليه السلام – ينتسب إلي تلك الأرومة [1] الطيبة النقية ، فهو فرع من دوحة المرسلين المقربين ، وقصته إنما تمثل صفحة من سيرتهم العطرة وقد فاح شذاها عبر الزمان ؛ لذا اهتم القرآن الكريم بقصته، وسطرت آياته لوحة رائعة ترسم لنا صورة الإنسان الواثق في الله ، المتيقن من تحقيق وعده ، الداعي ربه رغبا ورهبا ٠

ثم إنها تلك القصة القرآنية التي تتسم أحداثها بهذا القدر الهائل من تدفق الأحاسيس والنبض الإنساني الذي يسري في كل مواقفها من بدايتها إلي نهايتها ، وربما يرجع السبب في ذلك –حسب اجتهادي – إلي تلك التجربة التي تعرض لها نبي من أنبياء الله بكل تفاصيلها تمثلت في فقدان الولد ، والحاجة إليه بحيث شكلت هذه التجربة اهتمام الشخصيات في القصة كلها من بداية المشاهد مرورا بإعلان القرآن عن تطور الواقع ، فالعقدة ، ثم الحل ٠

وقد جاء هذا البحث محاولة للإجابة علي سؤال ظل يؤرقني طويلا وهو: هل يمكن أن ترتب أحداث القصة القرآنية من حيث تكرار حلقاتها المختلفة ترتيبا زمنيا

(١) " الأرومة هي : الأصل " انظر : القاموس المحيط : الفيروزابادي ، ج١ ، ص ١٣٧ مرتبا بترتيب ألفبائي ٠

منطقيا ، بما أن القصة القرآنية نوع من التاريخ الموثق الذي لا يتطرق إليه شك ، مع كون القرآن لا يهتم بالتأريخ الإحصائي ؟

وحتى يتضح الأمر أكثر علينا مثلا أن نتصور أن مشهد نداء زكريا – عليه السلام – في سورة مريم تال في الزمن من حيث تطور الحدث الطبيعي لمشهد الدعاء الذي ورد في آل عمران ، حيث تتلاقي الحلقتان بين السورتين في سياق متصاعد يجيز لنا القول : أن المشهد الثاني يعبر عن مرحلة زمنية مختلفة في حياة الشخصية عن تلك المرحلة الواردة بالمشهد الأول ، وبالتالي تكتمل أحداث القصة بحلقاتها المتنوعة : أدبيا ، وتاريخيا ، فتصبح القصة وقد تحققت فيها الوحدة العضوية والموضوعية معا .

وقد تمخضت لدي تلك الفكرة من خلال قراءاتي في توجيه المتشابه القرآني عند علمائنا من المعنيين بذلك وهي فكرة مؤداها : أن القصة ذات الأحداث المتفرقة في القرآن إنما هي في الأساس لحمة واحدة بكل مشاهدها ، حيث تنتظم هذه المشاهد في النهاية في قصة واحدة مكتملة .

ولسنا بصدد الحديث عن هذه الفكرة بمعزل عن السياق التاريخي للقصة نفسها ، فبهذا يحمل السياق الأدبي التسلسل الطبيعي للحدث القصصي ، بما يؤدي في النهاية إلي تكاملية شاملة للأسلوب . ولا ريب أن فكرة تكامل السياق الأدبي المطروحة إلي الآن تضع في الاعتبار تتبع الهدف الأساسي من القصة تتبعا متسلسلا من حيث منطقيته ، وتجعله مقدما علي غيره .

وعند الحديث عن الحلقات القصصية لا يعني الباحث الأدبي في مجال القصة القرآنية – في المقام الأول – الحديث عن الحلقات الزمنية ومن السهل التضحية بها في سبيل التكامل الأسلوبي ؛ إذ التكامل الأسلوبي يعني : توظيف التكرار في

القصة بما يلائم الغرض الكلي الذي يجمع كل حلقات القصة المفرقة بين السور؛ والقرآن لم يؤرخ لأحداث القصة تأريخا بالشهور والأعوام ٠

ومن هنا بدأت البحث في توجيه السياق الكلي في موضوع القصة القرآنية بما يضم إليه بطولة الزمن ؛ لذا جاء عنوان البحث (السياق الأدبي لقصة زكريا– عليه السلام – في القرآن الكريم) ؛ إذ إن التاريخ التسلسلي والمنطقي لزمنية الحدث موجود بالقصة القرآنية ، وإن كان لا يأتي في صورة إحصائية فيما يمكن أن نطلق عليه : اللغة الزمنية ، ويمثل السياق بمفرداته ، وجزئياته عاملا أساسيا في فهم هذه اللغة ٠

إذا فالسياق الأدبي الذي أقصده هو: النظرة الكلية الشاملة في أسلوب القصة من حيث الأحداث والمواقف هذا المفهوم تمتزج فيه أدبية القصة باللغة القرآنية الراقية التي تشكل بنيانها ، وسنعرف من خلال هذا البحث فيما يأتي – إن شاء الله – لمحات ومقتطفات من دور هذه اللغة في تشكيل بنية القصة وتطور أحداثها ٠

أهداف البحث

يعد من العيب تحكيم مقاييس الفن القصصي البشري في مجال القصة القرآنية ، فهي أعمال إنسانية منشؤها خيال المؤلف عادة ، وإن باتت واقعية تنقل من الحياة أدق تفاصيلها ، ثم إن القصة الإنسانية تبغي فيما تبغيه – الإثارة والانفعالات المؤقتة ، أما القصة القرآنية فهي مزيج من روح القرآن القوية وفيوضاته ، وإعجازه ، وكونه مناطا للتحدي ؛ لذا حاولت من خلال البحث في قصة نبي الله زكريا– عليه السلام– أن أؤكد علي : –

أولا : حاولت أن أبرز هذه الوحدة العضوية المتكاملة في القصة،وأسلوبها ، وسياقها ، وحلقاتها المفرقة في السور العديدة ، وهو ما يسمي بوحدة البناء القصصي .

ثانيا : أن القرآن يحرص علي عرض القصة في سياقها التاريخي حتي لا يتطرق لذهن أحد ، ولا لخياله الجامح ، ولا لمتأمل قصر نظره أن يتعامل معها بأدواته الفنية البشرية ، فيجردها من سياقها التاريخي الذي أكده القرآن في صورة أدبية رائعة ؛ لكونها قصة واقعية تاريخية صادقة .

ثالثا: حاولت –من خلال هذا البحث – التأكيد علي اهتمام القرآن الكريم بالجانب الزمني في قصصه ، وإن كان لا يتعامل معه بنظام التقويم العادي الذي يعرف الناس به عدد السنين والحساب ؛ فهذا التقويم نفسه كثيرا ما يصبح مصدرا للتشكيك في القصة التاريخية نفسها .

والذي أعرفه –حتي الآن– من خلال قراءتي حول الدراسات الأدبية في القرآن الكريم أن أحدا لم يهتم بهذه القصة ، فيفرد لها دراسة خاصة تبين ما بها من إعجاز أدبي ؛ لذا اخترت هذا العنوان (السياق الأدبي لقصة زكريا –عليه السلام – في القرآن الكريم) كي يكون موضوعا لهذه الدراسة المتواضعة .

هذا والله – أسأل– أن يكلل عملي بالتوفيق والسداد ، فما كان من خطإ فمني والشيطان ، وما كان من صواب فمن الله ، والله المستعان .

تمهيد

تجب الإشارة إلي أن دراستنا للقصة القرآنية في صورتها الأدبية الراقية ، ومنها قصة سيدنا زكريا – عليه السلام– لا تعتمد في منهجها علي المقاييس الفنية التي تحكم القصة العادية، أوعلي تلك الأسس التي تحكم نتاج البشر وإبداعهم ، فميدان القصة القرآنية الفسيح الرحب يعجز الأدباء عن المباراة فيه ؛ لما للبيان القرآني من سمو وإعجاز، ومفهوم القصة القرآنية بما يحويه من دلائل ، وما يحمله من أغراض يختلف عن ذلك المفهوم البشري الناقص ؛ إذ إنها : "٠٠ عرض لأحداث تاريخية حقيقية وقعت في زمن معين ومع أشخاص معينين تساق لأغراض دينية تلف وتدور حولها وهذه الأحداث ليست من نسج الخيال ، ولا من بنات العقول ، ولا من تصورات الأوهام إنها حقائق ثابتة ، ووثائق تاريخية صادقة "(١)

هذا وإن كنا نقر بأن القصة القرآنية ،إنما يتم عرضها في شكل أدبي يحتوي علي كل العناصر اللازمة لبناء القصة المؤثرة ، إلا أن التفوق الفني لآي الذكر الحكيم من تنسيق لمواطن القص لا يصح موازنته مع غيره من إبداع البشر ، مهما علت درجته فنيا ؛ لأنه لا يصح أن تتساوي القصدية الأدبية في القصة العادية – وهي نتاج بشري قد يصيب ، ويخطئ – مع الإعجاز الأدبي للقرآن ، والقالب القصصي القرآني نسيج وحده ، وقالب فريد معجز : " لم ينزل ليجاري الأدباء في أدبهم ، ويذهب في المبالغات مذهبهم ، ويستخف بحرمة بعض الحقائق استخفافهم وإنما نزل القرآن ليهدي الأدباء وغير الأدباء إلي ما يلائم الفطر السليمة من عقائد

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم –عليه السلام – الشحات محمد أبو ستيت ، ص ٨ ، مطبعة الأمانة ، د/ت٠

وآداب ، وأعمال فوجهته الدعوة إلي الإصلاح الشامل وليست هذه الدعوة الإصلاحية وليدة الدخول في ميدان التجارب الخاصة " .[1]

وسننطلق في دراسة قصة سيدنا زكريا –عليه السلام– من هذا الطريق الواضح بداية ، ونضعه نصب أعيننا حيث يحمل الشكل الأدبي المعجز الحقيقة التاريخية كاملة ، بينما لا يتوافر هذا في القصة البشرية التي يصعب أن تجمع بين الحقيقة التاريخية كما هي ، والشكل الأدبي في أسلوبه الرائع ؛ إذ تفقد حينئذ حيويتها وتتحول إلي مجرد آلة لتسجيل الأحداث ، لكن القرآن الكريم حقق هذه المعادلة ، فجاء الصدق الواقعي منسجما متوائما مع الصدق الفني – إن صح التعبير ٠

(١) بلاغة القرآن – الشيخ محمد الخضر حسين – ص ١١٧، ط / الأولي ، الحسينية للطبع والنشر ، د/ت ٠

المطلب الأول

طريقة القرآن في بناء القصة وعرض مشاهدها

حري بالذكر أن لقصة سيدنا زكريا – عليه السلام – في القرآن الكريم طابع فريد يميزها عن غيرها من القصص القرآني يبدو ماثلا في بنائها الأدبي ، ومنهج القرآن في عرضها ، وطريقته المثلي في تصويرها ؛ إذ من القصص القرآني ما يذكر مرة واحدة في سورة تحمل اسم القصة كسورة – يوسف –عليه السلام – أو قصة أصحاب الكهف في سورة تحمل هذا الاسم ، أو قصة أصحاب الفيل مثلا ، ومنها ما يتكرر في العديد من السور القرآنية كقصة موسي –عليه السلام – ، ومثلها قصة إبراهيم –عليه السلام ، أما قصة زكريا – عليه السلام – فتقف بين هذا ، وذاك حيث توزعت أحداثها بين ثلاث سور من القرآن وهي : آل عمران ، مريم ، الأنبياء ٠

ونستطيع من خلال هذه المواطن الثلاثة التي تشكل بناء القصة أن نرتب أحداثها من البداية إلي الوسط إلي النهاية ، في سياق مترابط ، تتحرك فيه المشاهد والأحداث في سيرها إلي الأمام ٠

١- **الموطن الأول** : وهو الوارد بسورة آل عمران وهي سورة مدنية وتبدأ القصة مما يمكن أن نطلق عليه مشهد الكفالة الذي يسجله القرآن في قوله تعالي : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِن عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١)

المشهد الأول من القصة يبدأ من قصة أخري وهي : قصة مريم – عليها السلام– وهو ما يميز هذا الموطن داخل السياق العام ، فلا يستطيع المتلقي أن يفصل بين القصتين قصة زكريا –عليه السلام– والتي هي جزء من قصة مريم نفسها هو مشهد عظيم ذاك الذي بدأ القرآن به هذا الموطن من القصة ! كله قرب ، ورأفة ، وعناية ، وشفقة ، فسيدنا زكريا في مقام الوالد الحاني ، يقوم بواجب الكفيل في رعاية مكفوله ، ويكرر الزيارة والسؤال ، وفي كل مرة يدخل فيها علي مريم، يشاهد عندها رزقا ، وهذا هو الحدث العجيب الذي بدأ الله به القصة في هذا الموطن ، وهذا الحدث العجيب : حدث خارج عن مألوف الناس بلا شك وهو ما أثار تعجب سيدنا زكريا في القصة فقال لها مستفهما : ﴿ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ وقد تصدي المفسرون لتحديد هذا الرزق فقالوا بأنه : " فاكهة الصيف في فصل الشتاء ، وفاكهة الشتاء في فصل الصيف(٢)(*) وتقديم الحدث الخارق في بداية القصة له دور كبير في التشويق حين يتطلع

(١) سورة آل عمران ٠ الآية (٣٧)

(٢) مختصر تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : الصابوني – ج١ ، ص ٢٨٠ ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨١م

(*) يدافع الفخر الرازي عن هذا الرأي ، ويرد علي من يقول بخلاف ذلك من المعتزلة وغيرهم القائلين بأن المراد بالرزق هنا : العفاف والسيرة المرضية بقوله :" وذلك لأن حصول الزهد ، والعفاف ، والسيرة المرضية لا يدل علي انخراق العادات ، فرؤية ذلك لا يحمل الإنسان علي طلب ما يخرق العادة ، وأما رؤية ما يخرق العادة فقد يطمعه في أن يطلب فعلا خارقا للعادة " مفاتيح الغيب : الفخر الرازي ج ٨ – صـ ٣٦ ، الخامسة ، دار الفكر ، د/ت ٠

المتلقي إلي ما يليه من أحداث تعقبه ، وتستشرف نفسه إلي كشف المشاهد الكلية التي تفسر هذا الحدث ٠

إلا أن القرآن الكريم لم يحدد نوع الرزق ، ولا ماهيته كما فعل المفسرون فمحاولة تحديده هنا بكونه فاكهة الصيف في فصل الشتاء ، لا يخدم السياق ، ولا يعطي هذه المعاني من التعظيم ، والتعميم ، والتنويع الذي تفيده لفظة رزقا التي جاءت نكرة في التعبير في قوله تعالي : ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾[1] وهو ما أكسب الحدث خصوصيته الجمالية ، كما أظهر عامل التشويق المصاحب له حين يتساءل المرء ؟ ماذا يكون هذا الرزق ؟ ومن أي جهة أتي ؟ ومن هنا كان تميز السياق القرآني في عرضه لهذا الحدث الكبير المعبر ٠

ومن خصائص هذا الموطن من القصة ارتباط أجزاء المشاهد ببعضها برباط دقيق تسلم فيه كل جزئية إلي الأخرى ؛ إذ إن دخول زكريا – عليه السلام – علي مريم ومشاهدته لهذا الحدث أكثر من مرة ، ووجود الرزق من غير أن يعلم مصدره ، هو ما يدفعه في النهاية إلي سؤالها عن هذا الأمر قائلا لها : ﴿ أَنَّي لَكِ هَذَا ﴾ ، و تجيبه مريم –عليها السلام – الإجابة الدالة علي قوة يقينها بربها – عز وجل :﴿ قَالَتْ هُوَ مِن عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] .

وهذا الرد الذي يدل علي ذكاء إيماني ليس بمستغرب من القائل يبني عليه المشهد التالي ، فعندما يسمع سيدنا زكريا –عليه السلام – هذا الكلام من مريم عليها السلام –يستوحي نبي الله من هذا الرد درسا في العطاء الإلهي الذي لا تقيده

(١) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٧)
(٢) آل عمران ٠ الآية (٣٧)

الأسباب؛ فيدعو الله كي يرزقه ولدا من غير سبب كما رزق مريم من غير سبب : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[1] وبالتالي يرتبط المشهد الثاني في هذا الموطن من القصة بما سبقه كما ترابطت جزئيات المشهد السابق ، وهو ما دلت عليه كلمة (هنالك) التي أشارت إلي تلك التداخلية بين المكان والزمان : " أي في ذلك المكان حيث هو جالس عند مريم في المحراب "[2]

وهو ما أعطي هذا المشهد من القصة خصوصيته هنا ؛ من كونه قدم لنا إيحاء بأن طلب الولد من قبل نبي الله – زكريا –عليه السلام – حاجة قديمة داخلية كانت حبيسة حتي وقت هذا الدعاء ، وأننا ندرك السر الذي رفع القرآن من فوقه غطاء النسيان الآن بعد أن مضي عليه وقت ، مما أدي إلي أن تدور الأحداث حول هذه القضية فيما يعقب ذلك من مشاهد ، فإذا ما أردنا أن نعرف من أين تبدأ قصة زكريا – عليه السلام – بخصوصيتها ؟ فمن هذا الحدث بالذات ؛ لأن القصة القرآنية تبدأ : " من حيث تبدأ المواعظ والعبر والأهداف المقصودة ، وتغفل المراحل الأولي في حياة كثير من الأنبياء ؛ لأنها لا يتعلق بذكرها وتفصيلها غرض ولعدم اشتمالها علي ما يهدف إليه القرآن الكريم ٠٠"[3]

(١)سورة آل عمران ٠ الآية (٣٨)

(٢) روح المعاني : الآلوسي / ج ٣ ، ص١٤٤ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، د/ ت ، وارجع إلي : مفاتيح الغيب للرازي ج ٨ ص ٣٥

(٣) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم – عليه السلام – الشحات محمد أبو ستيت ، ص ١١، ط/ الأولي ، مطبعة الأمانة ١٤١٢هـ – ١٩٩١م

وهذا هو السبب في أن القرآن لم يركز علي أحداث سابقة علي تلك البداية التي اختارها للقصة ، فلم يأت في القصة ما يؤرخ لطفولة زكريا – عليه السلام – أو نشأته ، أو شبابه ، أو فيما يخص طبيعة دعوته وموقف قومه منه كما ورد في مصادر التاريخ [1] ، وهذا طبعي ؛ إذ القرآن الكريم ليس ملزما بأن يقدم لنا إحصاء بأحداث تاريخية للشخصية القصصية من أولها إلي آخرها ، وكل ما يهمنا هو أن يعطينا لمحة من عمر هذه الشخصية تمثل عصارة هذه الحياة ٠

وإذا كان الدعاء له أوقاته ، وأحواله ، فإنه في هذه اللحظة المناسبة يحدد سيدنا زكريا –عليه السلام– ما يريده ،ويطلب من الله ما يحتاجه ، ويقدم لذلك بقوله (هب لي) لأن الهبة عطاء دون مقابل ، ودون أسباب، ودون عوض يطلب زكريا – عليه السلام – من ربه هنا طلبا محددا : أن يهبه ذرية طيبة من صلبه ٠إن سيدنا زكريا – عليه السلام هنا لا يريد الولد من أجل الميراث ،أو المعونة ، أو هدف آخر يبعد عن وجود الأسرة التي تقر العين ، ويطيب بها الخاطر ، وهو يقدم لهذا الدعاء بقوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[2] وهو ما يدل علي ذكاء إيماني ، وحسن أدب مع الله عز وجل يناسب موقف الطلب٠ والأمر الذي يستحق الإشارة إليه ، أن بداية الأحداث التي تخبرنا بقضية سيدنا زكريا – عليه السلام – جاءت في أول سورة تعرض لمواطن القصة حسب ترتيب السور بالمصحف ؛ ومعلوم أن هذا الأمر توقيفي من عند الله لا يتدخل فيه أحد بالتعديل والتعقيب ؛ حيث يمثل

(١) ارجع إلي : تاريخ الأمم والملوك : الطبري ، ج١ ص ٥٨٥، ٥٨٦ ،، والكامل في التاريخ : ابن الأثير ، ج١ ص٢٩٨ – ٣٠٦ ، والمختصر في أخبار البشر : أبو الفدا ، ج١، ص ٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٨)

نمطا من أنماط الإعجاز في القرآن الكريم كما يري العلماء ..[1] ، وفي المشهد الذي يتلوه نري سيدنا زكريا – عليه السلام متعجبا مستبعدا لوجود الولد بعد أن تبشره الملائكة به ، مع كونه قد دعا ربه أن يهبه الولد دون مقابل ، ولندع السياق القرآني يقص علينا تلك الجزئية من هذا الموطن : ﴿ فَنَادَتْهُ المَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيِيَ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِن اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ .قَالَ رَبِّ أَنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ماَ يَشَاءُ . قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ .[2] [3]

هنا يدخل بنا القرآن إلي مشهد آخر له خصوصيته ينبثق عن مشهد الدعاء السابق؛ إذ يتحول الدعاء من طرف واحد إلي مشهد الحوار بين طرفين زكريا –عليه السلام– ومن يسوق البشري إليه ، وهو حوار يبدو فيه الصراع بين ما تبعثه البشري التي جاءت بها الملائكة من أمل في قلب زكريا –عليه السلام– في الآية رقم (٣٩) ، وأسباب الواقع التي طرحها زكريا –عليه السلام– في الآية التي تليها، وهذا الصراع هو ما يميز هذا المشهد عن سابقه ،ويعطيه ذاتية داخل الموطن في الوقت نفسه الذي تتعانق فيه جزئيات المشهدين معا ، وسيدنا زكريا هنا له عذره إذ إنه إنسان مقيد بالواقع ، وهذا ما ظهر من خلال عرضه لقضيته في قوله:﴿ رَبِّ أَنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ

(١) ارجع إلي : المعجزة الكبري : القرآن : محمد أبو زهرة ، ص٤٧ ، ط/ دار الفكر العربي د/ت .

(٢)سورة آل عمران . الآية (٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) .

يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [1] حيث يبدو منطق الأسباب ، مسيطرا علي الحوار من جانب سيدنا زكريا –عليه السلام– فقد تجاوز مرحلة الشباب ، وهاهي امرأته عاقر لا تنجب ، لقد ظهرت العقدة القصصية من قلب البشري في صورة المستحيل الذي لا يستطاع تغييره بناء علي معطيات البشر ، وقوانينهم ؛ لذا فقد كان . زكريا – عليه السلام – بحاجة إلي تأكيد المستقبل الذي نطقت به البشري ، وإمساكه ، وأيضا ، فهذه الجملة الحوارية تصور سيدنا زكريا – عليه السلام – وهو علي وعي بحالته ، و مفرداتها ، وهذا من خصوصيات العرض القرآني التي تتمثل في قدرة السياق علي استبطان الشخصية الإنسانية في ذلك الموقف : " في واقعيتها الكاملة ... في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري ، ويوجه الاهتمام إلي كل نموذج حسب أهميته ، فيعرضه عرضا صادقا يليق بالمقام ويحقق الهدف التربوي من عرضه . [2]

وهذا الاعتراف بالواقع كما هو يلقي الضوء علي السبب الذي من أجله قدم سيدنا زكريا –عليه السلام – لدعائه بقوله : هب لي ، فواقعه هذا لا ينتظر معه أن يكون له ولد ، ولا حتى أن يفكر فيه .

وفي الجملة الثانية من الحوار في الآية يأتي قوله تعالي : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[3] بتحول في أسلوب الحوار ، ومجراه السردي ، فلم يقل القرآن : قالت الملائكة كذلك الله يفعل ما يشاء ، بل استخدم القرآن كلمة (قال)

(٤) سورة آل عمران : الآية (٣٩)

(٢) القصة القرآنية الخصائص والأهداف – د/ علي حسن محمد سليمان ، ص ١٢٧ ، ط الأولي ، مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م

(٣) سورة آل عمران . من الآية (٤٠)

واختفي الطرف الآخر وهو: الملائكة ، وهذا الانتقال الملحوظ في أسلوب الحوار مبني علي اختلاف الموقف نفسه ٠لقد كان زكريا – عليه السلام – ، وهو يدعو سابقا مترقب للإجابة منتظر لها ، فجاء النداء سريعا ، يحمل بشري الملائكة جميعهم ، وكأنهم يزفون إليه هذه البشارة ، لكن عندما خضع سيدنا زكريا لبشريته ، مستبعدا بقوله ﴿ أني يكون لي غلام ﴾[1] تطلب هذا وجود طرف منفرد مقابل ؛ حيث خضع المشهد لتقنية الأسلوب الحواري ، وكأن كلمة قال صدرت عن ملك من الملائكة ، أو من جبريل – عليه السلام– ، وليس ثمة ما يمنع من كون الحوار تصويرا لواقع زكريا – عليه السلام– في رجوعه عن الاستبعاد بحيث يبدو مؤكدا مضمون البشري نفسها ٠

وفي قوله تعالي : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ [2] تتبدي معطيات الواقع البشري الماثلة داخل سيدنا زكريا – عليه السلام – مرة أخري فيطلب من ربه شيئا ملموسا تذعن له النفس البشرية وتخضع لأسبابه٠ إنها قدرة فنية خارقة في تصوير الصراع الداخلي بين الأمل وما يخبئه المستقبل في تلك البشري ، والواقع الإنساني ومعطياته من ناحية أخري ، وحيرة الشخصية القصصية بين الأمرين ؛ لأن القرآن مع كونه منزل من عند الله : " بشري الصورة ، إنساني المنازع والعواطف يتحدث عن الناس إلي الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة ٠٠٠يقرؤه الناس ويسمعونه فكأنما يسمعون همس ضمائرهم ، ووسوسة خواطرهم ٠٠٠ومن

(١) سورة آل عمران ٠ من لآية (٤٠)

(٢)سورة آل عمران ٠ من الآية (٤١)

هنا فهم يعيشون فيه ويحيون معه ، وينتفعون به انتفاع الأرض أصابها الغيث ، فوقع منها مواقع مختلفة . [1]

ويأتي الرد علي سيدنا زكريا في قوله تعالي: ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾[2] مصورا مسارعة المولي – عز وجل- إلي مرضات هذا النبي الكريم بإعطائه التأكيدات اللازمة ؛ لعلمه بهذه البشرية وقوانينها .

و يرجع القرآن لمشهد الكفالة مرة أخري في نهاية هذا الموطن من القصة في سورة آل عمران ، ولكن ليكشف عن حدث سابق لبداية هذه الكفالة وهو مشهد المسابقة من أجل الفوز بهذه الكفالة ، وكيف أن القوم ألقوا بأقلامهم في الماء، وكلهم حريص علي الفوز بها في قوله تعالي : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يلقون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ . [3]

والترتيب الزمني للقصة هنا يخالف ما يعرف بالترتيب السردي لذلك الزمن ؛ لأن هذا المشهد في الترتيب الطبيعي سابق علي مشهد الكفالة في بداية الأحداث .هذا السير غير الطبيعي للزمن هنا مقصود ؛ لأنه خاضع للغرض من القصة وهو هنا إخبار الرسول – صلي الله عليه وسلم – عن الأحداث التي لم يعاصرها دلالة علي صدق القرآن ، وكونه من عند الله الذي يعلم السر وأخفي ، أما نهاية هذا الجزء من القصة في آل عمران فتلك النهاية المفتوحة ، حيث يختم حوار زكريا –

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : عبد الكريم الخطيب ص ٧٣ ط/ الثانية ، دار المعرفة بيروت / لبنان ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م

(٢) سورة آل عمران .من الآية (٤١)

(٣) سورة آل عمران . الآية (٤٤)

عليه السلام – مع ربه ، ومع الملائكة في هذا الجزء دون أن نعرف ماذا حدث لزكريا – عليه السلام– بعد الدعاء ، والبشارة التي ساقتها له الملائكة ؟ ، ولم يدلف السياق في القصة إلي الخاتمة ، أو ما يسمي الحل ، أو الانفراجة علي المستوي الأدبي للقصة ، ماذا حدث بشأن تحقق الآية التي طلبها زكريا – عليه السلام – من ربه ؟ لم يعطنا السياق إشارة لتحققها أحدثت بعد الحوار ؟ أم بعده ؟ أم كانت مستقبلا ؟ هل رزق زكريا – عليه السلام – الولد؟ أم هل حملت زوجه ؟ كل هذا لا نجد الإجابة عليه من خلال السياق في آل عمران ٠

٢- الموطن الثاني للقصة .

يعرض السياق القرآني الموطن الثاني للقصة في سورة مريم وهي سورة مكية نزلت قبل سورة آل عمران والمتأمل لهذا الموطن في السورة يدرك هذا التشابه الكبير بينه ، وبين الموطن السابق الذي عرضه القرآن للقصة في آل عمران في أسلوبهما ، ومواقفهما ، و الحوار الذي يدور بين زكريا – عليه السلام – وبين من يبشره بالذرية الصالحة تشابها قد يوحي لمن لم يتأمل طويلا في جزئيات السياق بين الموطنين – بكونه مشهدا واحدا من مشاهد القصة ، وأن القرآن قد أعاده هنا للمرة الثانية ، ولندع القرآن نفسه يقص علينا هذا الموطن في سورة مريم ، في تلك الآيات الخالدات : ﴿ كهيعص٠ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِياً ٠إِذْ نَادَي رَبَّهُ نِدَاءً خَفِياً ٠ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً ٠وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً ٠يَرِثُنِي وَيرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٠ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيِيَ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ٠قَالَ رَبِّ أَنَّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً ٠قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ

مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ٠قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِياًّ ٠فَخَرَجَ عَليَ قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأوْحَي إِلَيْهِمْ أن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِياًّ ٠يَا يَحْيَ خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِياًّ ٠ وَحَنَانًا مِّن لَّدُناًّ وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِياًّ ٠وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِياًّ ٠ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياًّ ﴾. (١)

وإذا جاز لنا أن نضع جزئيات الموطنين في مقابلة ، فسنجد هذا الأمر واضحا كل الوضوح ففي سورة آل عمران يدعو سيدنا زكريا –عليه السلام – ربه بقوله :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾(٢) وهنا : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياًّ ٠يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياًّ ﴾(٣) وفي آل عمران تأتي إجابة سيدنا زكريا عليه السلام في قوله تعالي : ﴿ فَنَادَتْهُ المَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيي مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) وهنا في مريم : ﴿ يَا زَكَرِياًّ إناَّ نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيي لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِياًّ ﴾(٥) وفي آل عمران يتعجب سيدنا زكريا من هذه البشارة في قوله : ﴿ رَبِّ أنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأتِي عَاقِرٌ ﴾(٦) وهو ما يحدث هنا في سورة مريم في قوله : ﴿ رَبِّ أنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأتِي عَاقِراً وَقَدْ

(١) سورة مريم ٠ الآيات من (١) إلي (١٥)

(٢) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٨)

(٣) سورة مريم ٠ الآيتين (٥ ،٦)

(٤) سورة آل عمران ٠الآية(٣٩)

(٥) سورة مريم ٠الآية (٧)

(٦) سورة آل عمران ٠(٤٠)

بِ َلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً ﴾[1] وفي آل عمران يأتيه الرد:﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[2] وهنا يأتي الرد علي سيدنا زكريا –عليه السلام – في أية مستقلة :﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾[3] ويطلب سيدنا زكريا من ربه في سورة آل عمران آية تطمئنه ، وتثبته ، فيعطيه ذلك ، ويحدد له وقت وقوعها : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ َ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾[4] وهنا في مريم يطلب هذا الطلب نفسه ويحدد الله وقت وقوعها في في ثلاث ليال : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِياً ﴾. [5]

وإذا ما أردنا أن نلقي نظرة علي ما بين الموطنين من اختلاف من ناحية الأحداث الجديدة بالقصة ، فهذه الإشارة إلي رزق الله سيدنا زكريا –عليه السلام– بولده يحيي–عليه السلام– والتي لم ترد في موطن سورة آل عمران والتي عرضها القرآن فيما يلي : –

١– يشير السياق القرآني في هذا الموطن إلي الحل بما يوحي بنهاية تقف عندها التطلعات ، وتختفي المعاناة ، وأنه في ختام هذه الأحداث ستكون الانفراجة وهو ما عبرت عنه كلمة الرحمة في قوله –عز وجل– في بداية سورة مريم في الآية الثانية : ﴿ ذِكْرُ رَحْمتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِياً ﴾[6] ، فالموضوع الذي يطرحه المولي

(١) سورة مريم٠ من الآية (٨)
(٢) سورة آل عمران ٠الآية (٤٠)
(٣) سورة مريم ٠ الآية (٩)
(٤) سورة آل عمران ٠الآية (٤١)
(٥) سورة مريم ٠الآية (١٠)
(٦) سورة مريم ٠الآية (٢)

المولي – عز وجل – في هذا الموطن – هو موضوع زكريا – عليه السلام – خاصة ٠

٢ – يكشف القرآن عن هذا الحدث الذي يمثل تلك النهاية السعيدة شيئا فشيئا؛ حيث ينقلنا السياق القرآني إلي جزء جديد من القصة لم يذكر في سورة آل عمران والتي وقف السياق فيها عند وعد الله لزكريا –عليه السلام – بالآية وتركنا دون أن نري تحققها ، ولكن هذا الموطن نري فيه زكريا – عليه السلام – يخرج علي قومه محدثا إياهم بلغة تشبه لغة الإشارة بما يوحي بتحقق الآية وهو عدم قدرته علي النطق مع سلامة اللسان ، دلالة علي اقتراب الحل بحمل زوجه بالولد، ونري الزمن القصصي هنا يمتاز بخصوصيته التي جاءت من تكرار الفاء في قوله تعالي (فخرج) – (فأوحي) بما تدل عليه من التعقيب وكأن الآية حدثت بعد الحوار الذي دار بين زكريا – عليه السلام – وربه مباشرة ٠

وفي قوله تعالي : ﴿ يَا يَحْيىَ خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[١] يقفز السياق القرآني فوق حدث ولادة يحيي – عليه السلام – ليعرض لنا مشهدا تاليا لتلك الولادة ، وفوجئنا بوجود يحيي – عليه السلام – وبنداء المولي – عز وجل – له : في أمر واضح بالتمسك بالمنهج ، وهذه الفجوة بين المشاهد من أسس بناء القصة القرآنية والتي يحدث القرآن بها تشويقا يخص السياق القرآني في ملامحه المتفردة لما لها من دور : " في إحياء المشاهد وتحقيق الحضور لها وشد القارئ ٠٠إلي متابعة القصة والسير معها حتي نهايتها " . [٢]

(٢) سورة مريم ٠الآية (١٢)

(٢) أسس بناء القصة من القرآن الكريم : محمد عبد اللاه عبده دبور ، ص ١٢٢

وأقصد ما تعنيه هذه الكلمة من كون التشويق هنا له خصوصيته ؛ إذ إني لست مع من يشير الي وجود هذا العنصر القصصي في كتاب الله دون أن يؤكد علي حقيقة تمايز النسق القرآني في طريقة عرضه للحكاية القصصية ، فالأسلوب القرآني هنا يختلف عن تلك التقنية البشرية القاصرة ، حيث يحشد الذكر الحكيم كل عوامل التشويق ، ويوقظ كل بواعثه في النفس البشرية لا من خيال محلق ،ولكن من خلال إشاراته إلي الحقيقة ، بما يؤدي للوصول إلي الحدث الغائب ويكون ذلك من داخل السياق حيث لا يترك المتلقي نهبا للخيال ، أو الإيهام.

ويشير السياق في قوله تعالي : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِياً ﴾ (١) إلي مشهد آخر يدل علي أن العمر قد امتد بزكريا – عليه السلام – حتي شاهد ولده يحيي – عليهما السلام – يكبر أمامه ، ويرعاه في شيخوخته، وهو مشهد مركز موحي يحتوي علي تفاصيل كثيرة .

هذا فيما يخص الجديد من الأحداث التي قدمها هذا الموطن ، أما فيما عدا ذلك من مشاهد هذا الموطن فيبدو التشابه الكبير بينها ،وبين تلك المشاهد في آل عمران ، خاصة مشهد الحوار بين زكريا – عليه السلام – وبين من يسوق البشري إليه، وهو ما يجعل الإنسان يتساءل عن الرابط بين المشاهد المكررة بين الموطنين ، وهل ما فعله القرآن هنا يعد تكرارا وإعادة للمشاهد بملابساتها وكل ما يبني عليها من دلالات ؟ أم إن القرآن يعطينا في كل مشهد من هذه المشاهد المكررة معني جديدا ، وتطورا في الجو النفسي ،وتصاعدا للحدث القصصي كل هذا سنعرفه من خلال الحديث عن الوحدة العضوية بين هذه المشاهد.

(١) سورة مريم ،الآية (١٤)

ـ الوحدة العضوية بين موطني القصة :

لا مناص من الإشارة إلي حقيقة في غاية الوضوح ، وهي أن مفهوم الوحدة العضوية الخاصة بالقصص القرآني لا تقاس بتلك المقاييس التي تحكم هذا البناء القصصي البشري ؛ ولهذا نري القصة القرآنية وقد توزعت مشاهدها ، وتفرقت أحداثها بين السور ، ومع هذا ندرك تماما ما بين هذه الأجزاء من ترابط معنوي وتكامل بين الأحداث والمواقف ، وقد يبدو لمن لم يتأمل طويلا في سياق القصة القرآنية تكرار يصعب توجيهه إلي التكامل الزمني أي : أن ترتب الأحداث ترتيبا متواليا من : بداية ، وسط ، خاتمة ، ومن هنا يحكم باستقلالية كل جزء عن الآخر ظنا منه بأن الوحدة العضوية لقصص القرآن تعني : أن تكون الحلقات المتعددة التي يتكون منها جسم القصة بين السور : " مستقلة ، وليست من قبيل الأجزاء ، فهي عرض أدبي للحادث تختلف ألوانه باختلاف أغراضه كما يكون الشخص الواحد وأحداث حياته مادة قصص متعددة ، تصاغ صوغا مختلفا ؛ لكشف جوانب مختلفة ، ومعان متعددة للشخصية ، وأحداثها ". (١)

وهذا الرأي يحاول تجريد القصة القرآنية من سياقها التاريخي ؛ ليسهل عليه بعد ذلك أن يقيسها بمقياسه البشري ، وقد أشرنا قبل ذلك إلي أن القصة القرآنية لا يصح التعامل معها بهذا المفهوم ؛ إذ إن هناك فرقا واضحا بين القصدية الأدبية لدي المبدع من بني البشر وأن تأتي قصص القرآن علي هذا الشكل بما حواه من إعجاز أدبي ، إن القرآن لا يكرر تاريخ القصة أبدا ، وعندما يتأمل قارئ

(١) الفن القصصي في القرآن : محمد أحمد خلف الله ، ص ٢٢٤ ،ط / الرابعة ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م

القرآن هذا الأسلوب ، يجد هذا الأمر غير متعلق باللفظ وحده ، وإنما متعلق بالجو النفسي وبتصاعد السياق الزمني الذي يتغير بين أسلوب ،وآخر : " لأن القرآن لا يكرر الموضوع بألفاظه ، ولا معانيه ، وإنما يكرر الحقيقة والفرق كبير بين الحقيقة ، والمعني ، فالحقيقة تشبه الفكرة ، أو الموضوع والمعني يشبه العنصر ... واختلاف هذه القوالب أو الألوان ليس لمجرد تنويع الأسلوب وإنما لغرض أبعد من ذلك وهو مخاطبة كل عوامل التأثير في الإنسان من عقله وغرائزه ووجدانه ". (١)

" ومعظم التكرار إشارات سريعة إلي موضع العظة والعبرة أما جسم القصة ذاتها فلا يكرر إلا نادرا وحين نقرأ هذه المواقف القصصية نلاحظ ارتباطها الوثيق بالسياق الذي وردت فيه . (٢)

وهذا هو المفهوم الحقيقي للوحدة العضوية في قصص القرآن هذه الوحدة الزمنية والبنائية ، والتأثيرية والتي تترابط فيما بينها من خلال وحدة المصدر نفسه ، ومصداقيته بحيث تتلاقي كل حلقات القصة المفرقة في مشهد عام يشبه الجسد الواحد ، والوحدة العضوية ، أو الموضوعية في مفهومنا العادي للقصة ضروريتان ، ولا يخرج القاص عنهما إلا لهدف آخر من أهداف المؤلف التي تخص حبكة الرواية ،أو القصة ، بينما القرآن في قصصه يقصد هذه التجزئة قصدا لعاملين أساسيين :

(١) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم– د/ عبد الحليم الحفني – ص٤٥، ٤٦ ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٩٧هـ– ١٩٧٧م

(٢) نظرات في قصص القرآن – السيد محمد قطب عبد العال ، ص ١١٤، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة ، د/ ت٠

العامل الأول : تأتي هذه الحلقات المفرقة بين السور في أوضاع مختلفة ، وأساليب متعددة ومع هذا لا يكتمل المشهد الكلي للقصة إلا من خلال قراءة كل هذه الحلقات معا والتي ربما تتدثر بالكلمات ، وتكمن خلف السياق مع ما لها من أهمية في تسلسل الحدث ، وبما يدلل علي وجود العنصر الزمني التأريخي للقصة .

العامل الثاني : أن القرآن الكريم عندما يطرح هذه الأحداث وينثرها وسط السياق في أزمنة ، وأمكنة مختلفة ، فإنما ليتحدي المخالفين في كل وقت أن يعثروا علي أي اختلاف في كيفية ترتيب الحدث القصصي ، أو الصراع ، أو الحوار ،أو افتقاد أي جزء من الوحدة الشعورية والنفسية ، والتاريخية ، بينما يربط المؤمن بهذا السياق طويلا ، ويجلسه علي مائدته مليا ؛ ليتدبر آياته ويعيها .

وإذا أردنا مثالا ناطقا بهذه الحقيقة ، فسيكون هذا الموطن الذي يكرره القرآن هنا في سورة مريم ، أو ما يبدو في الظاهر كذلك ، وحتي يكون المثال دالا علي ذلك تمام الدلالة ، فلنرصد في هذا الموطن ذلك اللون من التكرار الدقيق الذي يخص التطور الزمني ، والنفسي ، والأدبي في أسلوب القصة .

في بداية هذا الموطن من القصة يفاجئنا السياق القرآني بالمشهد الذي يسجله القرآن الكريم في قوله تعالي : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِياً ﴾[1] ولكي نصل إلي الاختلاف بين هذا المشهد ،والمشهد الأول في سورة آل عمران علينا أن نفهم الفرق بين النداء هنا ،والدعاء هناك في آل عمران ، فإذا كان النداء في الأصل

(١) سورة مريم ،الآية (٣)

كما يقول صاحب القاموس هو : " الصوت " [1] فإن القرآن قد حرص هنا علي أن يعطيه خصوصية تتسق مع هذا الموطن الجديد ، فوصفه بالخفي وهنا يثار الفضول في النفس البشرية لمعرفة طبيعة النداء الخفي، ولم كان خفيا ؟ ولماذا حرص سيدنا زكريا – عليه السلام – علي أن ينادي ربه في خفاء؟ فهل يا تري لما في يحتويه الدعاء من طلب الولد في مثل هذه السن ؟ أم هو سبب آخر؟ ثم يأتي مضمون النداء ليؤكد خصوصية هذا المشهد الأول في موطن القصة ؛حيث يطرح سيدنا زكريا –عليه السلام– بداية مفردات الواقع التي تثير الأسى ، وقد زادت واستفحلت في هذا الموطن الذي يخصصه السياق لدعاء سيدنا زكريا– عليه السلام– فحسب – وقد زادت واستفحلت ، وهو ما يجعله مختلفا عن مشهد الدعاء في سورة آل عمران : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً ۰وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً ۰يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً ﴾.[2]

نحس في هذا المشهد بأن جو القصة يختلف عنه في سورة آل عمران ، ويكمله في المشهد الكلي للقصة ، حيث يبدو وكأنه مترتب عليه زمنيا ، فزكريا – عليه السلام – هنا يدعو ربه وحيدا بالمحراب ليس معه أحد وكان قد بلغ نهاية الكبر ۰

(١) انظر : الفيروزابادي : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٣٥١ ط، الثالثة ، دار الفكر د/ ت۰

(٢) سورة مريم۰الآيات (٤، ٥ ،٦)

هناك في سورة آل عمران كان يتوق زكريا – عليه السلام – لإجابة الدعاء لذا قدم له بقوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[1] أما هو هنا فهو يطلب إنهاء الشقاء الذي ربما يترتب علي عدم الاستجابة له ؛ ولذا قدم له بقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياًّ﴾٢ فعلي الرغم من أن الحال كما هو لم يتغير، وأنه دعا ربه لربما أكثر من مرة ، بل لربما في جل أوقاته إلا أن هذا الدعاء نفسه لم يكن سببا في شقائه يوما .

وفي قوله تعالي : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ﴾[3] يكشف السياق عن أحداث جديدة في حياة الشخصية الرئيسة بالقصة لم ترد في آل عمران ، فقد أدرك زكريا – عليه السلام – هنا الخطر الذي بات يهدد حياته الخاصة وهو خوفه من مواليه بعد موته أن يضيعوا كل شئ ، وخوفه علي عقيدته فإذا جئنا إلي قوله تعالي : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ﴾[4] في سورة مريم ، فإننا بإزاء جملتين تعبران عن الموقف نفسه :الجملة الأولي في سورة آل عمران وقد وردت في صورة الجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر : ﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[5] بينما نلاحظ في الجملة هنا ظهور الفعل الماضي الناسخ (كان) ، وتصدره هذه الجملة بشكلها ونظمها الجديد فتعطينا فجوة زمنية طالت أو قصرت بين المشهدين في كلتا السورتين صحيح أن (كان) لا تقتصر علي المضي في كل الأوقات ، وأن من

(١) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٨)
(٢) سورة مريم ٠ من الآية (٤)
(٣) سورة مريم ٠ من الآية (٥)
(٤) سورة مريم ٠من الآية(٥)
(٥) سورة آل عمران ٠ من الآية (٤٠)

معانيها الثبات ،والديمومة فقوله تعالي ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾١ وما شاكلها من آي الذكر الحكيم لا تعني : أنه الآن غير رحيم ، أو عليم ، أو مقتدر ، بل معناها التأكيد والتثبيت للمعني وإحاطة علمه بكل شئ ، لأن كان هنا :" تدل علي استمرار مضمون الخبر في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل . (٢)

أقول : إنه حتي لو كان معناها التأكيد والتثبيت هنا فقد صورت هذه المفارقة بين بداية العقدة هناك في آل عمران ، وبين ذروتها هنا في سورة مريم لأن تأكيد العقر وتثبيت معناه في مقابل وجوده في آل عمران يعطي هذه الانتقالية في السياق بحيث تزيد المشكلة وتستفحل ، وهو ما يدركه المتلقي المتعمق للسياق من خلال تتبعه لكل جزئياته ، وعلي هذا لا تستقل اللفظة في دلالتها علي الزمن من غير معاونة السياق كله : " ذلك لأن التعبير عن الزمن في اللغة العربية موكول لصيغة الفعل ، وللقرائن المختلفة التي تسبقه ، أو تلحقه٠٠وبعبارة أخري فإن الفعل يظل قاصرا عن تحديد الزمن ما لم تساعده قرائن أخري ، أو يقع في سياق معين (٣).

أما الزمخشري فقد أشار إلي هذه التكاملية التي توجد بين موطني القصة من حيث التتابع الزمني عندما قال : " أي كانت علي صفة العقر حين أنا شاب

(١) سورة النساء ٠الآية (٢٩)

(٢) الزمن في القرآن الكريم – د/ بكري أمين ، صـ٥٥، دار الكتاب الحديث ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٠

وكهل ، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين أفحين اختل السببان جميعا أرزقه ؟ (١).

وبناء علي ما سبق ، ألا يجوز لنا أن نعد موطن سورة آل عمران تعبيرا عن بداية العقدة القصصية علي المستوي الأدبي ، في الوقت الذي بلغت فيه هنا قمة ذروتها ؟! ؛ حيث وصف زكريا – عليه السلام – في سورة آل عمران زوجه بأنها عاقر لا تنجب ومن المقرر أن المرأة لا توصف بكونها عاقرا إلا إذا كانت في سن يسمح لها بالإنجاب ولكنها لا تنجب لسبب ما يمنعها من هذا، أما السياق هنا في سورة مريم في قوله تعالي : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ﴾(٢) فقد دلنا علي أن صفة العقر زالت عنها ؛ لأن الفعل الماضي هنا نسخ الحكم السابق في سورة آل عمران ، وفي الوقت الذي نسخ فيه هذا الحكم نسخ الزمن أيضا ؛ إذ أوحي ألينا بأنها تخطت هذا العمر وتجاوزته ، فلا توصف بكونها عاقرا ولننظر معا كيف قفز السياق بالزمن بين السورتين قفزة كبيرة ، بما يشكل خطا مستقيما متصاعدا للحدث القصصي من حيث تقدمه إلي الأمام ، ويعطي هذا التكامل في المعني ، والشعور ، وبما يجعل هذا الموطن متمم وتال في الترتيب لموطن آل عمران في القصة .

ثم إن هذه الظروف والمستجدات التي ظهرت في كلام سيدنا زكريا – عليه السلام– هنا ، من حاجته إلي من يقوم بمهام النبوة بعد وفاته ، جعلته يطلب من ربه هذه المرة طلبا من نوع خاص بناء علي واقعه الجديد في قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً ﴾.(٣)

(١) الكشاف ، ج٤، ص ٧ ، ط/ مكتبة العبيكان ، د/ت .

(٢) سورة مريم . الآية (٥)

(٣) سورة مريم .الآيتين (٥، ٦)

فواضح أن سيدنا زكريا –عليه السلام– هنا يطلب الولد من أجل الميراث إنه في هذه الحال من تقدم العمر لا يطلب الولد من أجل الولد ، إنما يطلبه من أجل فكرة الخلود ٠ إنه يريد من يحمل اسمه بعد مفارقته هذه الدنيا ، امتدادا لوجوده وإكمالا لمسيرته٠ سيدنا زكريا –عليه السلام – لم يفقد الأمل هنا ، بل يشكل طلب الولد لديه نافذة من نور يطل من خلالها علي الحياة ، فهو يريد وريثا شرعيا يرثه وراثة خاصة، ويرث علمه ورسالته وراثة عامة ، وهو ما لم يرد في سياق الدعاء في سورة آل عمران ٠

وفي قوله تعالي : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾[1] وهذا مشهد الإجابة الذي يمثل هنا في مريم إضافة جديدة للمشهد الكلي للقصة حيث يسوق المولي– عز وجل– إلي زكريا – عليه السلام – البشارة بنفسه هذه المرة وبلا واسطة ، فتتطابق الإجابة مع ظروف الدعاء الجديدة ، وملابساتها ، فقد أحسسنا بأن سيدنا زكريا – عليه السلام – في دعائه يحتاج إلي التأكيد أكثر؛ لكونه قد طعن في العمر أكثر وأكثر ، وهذا مالم يحدث في سياق قصة آل عمران فقد كانت الملائكة هي الواسطة في مسألة البشري ، فيكون لكل موطن خصوصيته وتفرده في السياق بحيث يتعاون الموطنان في إبراز المشهد الكلي للقصة ٠

ولكن سيدنا زكريا هنا يرد علي هذه البشارة بما يشير إلي استبعاده ذلك كما حدث في موطن آل عمران : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ

(١) سورة مريم ٠الآية (٧)

بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً ﴾[1] ونتحول إلي المشهد الحواري مرة أخري بخصوصيات جديدة وهو ما حدث في حوار زكريا – عليه السلام– مع ربه عز وجل في سورة آل عمران حيث إنه بعدما سأل ربه ذلك بقوله : (هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[2] رجع بعد ما سيقت إليه البشري وكأنه غير مصدق في قوله : ﴿ ربِّ أنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾[3] وكان من المنتظر هنا في موطن القصة في سورة مريم وبعد هذه البشارة الكبري التي تخلع فيها الوسائط دلالة علي القرب أن يكف سيدنا زكريا عليه السلام عن استبعاده مرة أخري ، ولكن السياق يفاجئنا به ، وهو يطرح نفس الأزمة بكل مفرداتها : ﴿ قَال رَبِّ أنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً ﴾ .[4]

وتستوقف العلماء هذه النقطة في الحوار ، ويحاولون إيجاد الغرض من وراء هذا التكرار في ذلك عند حديثهم عن تأويل المتشابه من الآيات القرآنية حيث يكون جوابهم عن ذلك قائلين : أنه كان بين سؤاله وبشارته بالولد أربعين سنة. [5]

وهذا القول قد بني علي افتراض مؤداه وجود فاصل زمني بين الدعاء ، والإجابة ونحن لا نجد دليلا علي هذا من السياق القرآني أو من غيره يبرر هذا الكلام ، فلو كان تحديد المدة مهما لذكره القرآن الكريم ، وعلماؤنا – رحمهم الله – معذورون في ذلك فلم تكن مسألة توجيه المتشابه في القصة القرآنية قد وصلت

(١)سورة مريم ١٠الآية (٨)
(٢) سورة آل عمران ١٠من الآية (٣٨)
(٣) سورة آل عمران ١٠الآية (٤٠)
(٤) سورة مريم ١٠الآية(٨)
(٥) راجع : كشف المعاني في المتشابه من المثاني : ابن جماعة ، ص ٢٤٦ ، الأولي ، دار الوفاء للطباعة والنشر ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م

إلي ما هي عليه اليوم من فهم دقيق يقوم علي دراسة السياق من منطلق أدبي شامل ، والمرء يعجب من تقدير هذا الفاصل الزمني بهذه المدة ؟ والقصة إنما تتكئ في أساسها علي تصوير الزمن الموحي ، ولا تتعامل مع الزمن من هذا المنطلق التأريخي ٠

لكننا إذا تأملنا قليلا في السياق ، ووضعنا نصب أعيننا ما حرص عليه القرآن الكريم من عرضه للحقيقة الأدبية في القصة استطعنا أن نفهم هذا الاستبعاد ونستوعبه، وألا نعجب مطلقا من فحواه ، ففي هذا الموطن ينقل لنا المولي – عز وجل التجربة الواقعية التي ساقها مضمون البشري بملامحها الخاصة ، وأنها وقت التحمل والمعايشة تختلف عنها عندما تكون أمنية ، أو حلما ٠ إن القرآن هنا يصور واقعية النفس بكل مشاعرها وأحاسيسها المختلفة ، ولو كان بين الدعاء ، والإجابة فاصل زمني ، لما أعطانا تلك الدلالات الأدبية التي عشناها من خلال هذا التركيب ٠

المعضلة هنا جاءت من قلب الحل ، والاستبعاد صدر من قلب اليقين ؛ لأن زكريا – عليه السلام – بشر – بكل ما تعنيه كلمة البشرية من معني القرآن الكريم يصور النفس البشرية في ضعفها ، وحاجتها ، وواقعيتها والحوار في القصة يدلل علي أن سيدنا زكريا – عليه السلام – لم ينسلخ عن الواقع في إشارة قرآنية إلي التمسك بالأسباب وعدم تجاهلها حتي إن زكريا – عليه السلام – يكرر جملته هنا : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾١ للمرة الثانية بعدما ساقها من قبل ، وهذا النوع من التكرار يعطي هذه الجملة من الحوار مذاقا خاصا لربما يبعد بها عن مسألة الاستبعاد من ناحية زكريا– عليه السلام – إلي معني آخر أشار إليه الفخر الرازي

(١) سورة مريم ٠الآيتين (٥ ، ٨)

بقوله : " إن العبد إذا كان في غاية الاشتياق إلي شيء فطلبه من السيد ، ثم إن السيد يعده بأنه سيعطيه بعد ذلك ، فالتذ السائل بسماع ذلك الكلام ، فربما أعاد السؤال ليعيد ذلك الجواب ، فحينئذ يلتذ بسماع تلك الإجابة مرة أخري فالسبب في إعادة زكريا – عليه السلام – لهذا الكلام يحتمل أن يكون من هذا الباب . [1]

وعندما نضع قول سيدنا زكريا –عليه السلام– هنا في قوله : ﴿ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً ﴾[2] في مقابل قوله في سورة آل عمران : ﴿ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ﴾ نلاحظ خصوصية أخري بين الموطنين ، فالفعل الذي استخدمه القرآن بين الموطنين له أصول ثلاثة متطابقة في حروفها، ولكن الفرق هو في نظم الفعل داخل السياق نفسه فهو في آل عمران يسند إلي ياء المتكلم ، أما هنا فيسند إلي تاء الفاعل وهو ما خلع علي هذا الموقف خصوصيته وتفرده ، فزكريا – عليه السلام– في سورة آل عمران يصرح بقوله : ﴿ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ ﴾ بما لا ينفي تأثير الكبر فيه، لكن مع وجود القوة إلا إنه هنا يسند الكبر إلي تاء المتكلم التي هي تاء الفاعل في كلمة (بَلَغْتُ) وهنا تصور هذه الجملة زكريا – عليه السلام – في موقف آخر تماما ،فهناك كان زكريا– عليه السلام – هاربا من الكبر ، أما هنا فقد وطن نفسه علي مشاق الكبر الأمر الذي جعله يسير هو فيه باختياره ، وما زال يسير ، حتى بلغ منطقة عاتية لا يستطيع تجاوزها وكأنها الريح العقيم ، فالسياق هنا يصور سيدنا زكريا –عليه السلام– وما يعانيه من الألم ، والتعب ، والمشقة من ثقل أعوام مضت ؛ لذا يود زكريا – عليه السلام– أن يلقي كل هذا علي كاهل شخص آخر، فكان الطلب هنا ألح والمناداة في خفاء من أجل الإخلاص ٠إنها الفرصة الأخيرة في

(١) مفاتيح الغيب – الفخر الرازي ج٨ – ص ٤٢

(٢) سورة مريم ٠من الآية(٨)

الحياة ففي آل عمران كان الكبر قد بدأ يخط سطور الزمن علي ملامح زكريا – عليه السلام– وجسده ، فأحس بأن شمس حياته قد بدأت تأفل مع قوة موجودة تتطلبها كفالة مريم – عليها السلام – وهي ما جعلته يأمل فيما بقي من حياته ، فالوقت ما زال في صالحه ،والعافية ما زالت بالساعدين ،وهو في منطقة وسطي بين الأمل ،والقلق، أما في مريم فالعظام وهنت والعافية زالت من الأعضاء فالكبر عتي عليه ولم يعد في استطاعته المقاومة والصمود ، إنهما موقفان مختلفتان يكمل أحدهما الآخر مما يؤدي إلي تتابع المشاهد القصصية من حيث ترتيبها التصاعدي بما يمثل موطنا جديدا للقصة ، وينفي أن يكون هناك تكرار في الأسلوب القرآني بين الموطنين ، كما يبدو لغير المتأمل ، ويؤكد فكرة تطور العقدة القصصية ، فإذا انتقلنا إلي قوله تعالي:﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾[1] لاحظنا تلك المرونة العجيبة التي تشهد بإعجاز هذا القرآن عندما نقف عند قوله تعالي : (قَالَ كَذَلِكَ) فهذه العبارة تحمل تصديقا لزكريا – عليه السلام– فأصبحت تأكيدا لمفردات الواقع الذي يعيشه كما عرضها نبي الله زكريا – عليه السلام – نفسه ، لكن في طي هذا التصديق تبدو القدرة الخارقة حيث إن الله – عز وجل – رغم هذا قادر علي أن يعطيه وهو في مثل هذه السن دون أن يعيده للشباب مرة أخري ، وكذلك نلاحظ في هذا الموطن تكرار السياق لكلمة قال : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾[2] وهو ما لم يحدث في سورة آل عمران حيث أوردها مرة واحدة : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[3] وهذا مما اقتضاه السياق هنا أيضا من زيادة التأكيد وحشد كل ما من شأنه أن يسهم في طمأنة سيدنا زكريا – عليه السلام –

(١) سورة مريم ٠ من الآية(٩)

(٢) سورة مريم ٠ من الآية (٩)

(٣) سورة آل عمران ٠من الآية(٤٠)

وكأن كلمة قال الثانية تعني : أن هذه القضية حكم من الله لا يتخلف ، ثم يأتي قوله تعالي في الجزء الثالث من هذه الجملة الحوارية ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾[1] حيث يقدم السياق لزكريا – عليه السلام – دليلا منطقيا علي تحقق ذلك الوعد وهو خلقه من العدم المحض ، بينما لم يضف السياق شيئا من التدليل علي إمكانية ذلك في آل عمران ٠

وفي قوله تعالي ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِياً﴾[2] يطلب زكريا عليه السلام من ربه آية تدل علي تحقق هذا الأمر مثلما حدث في آل عمران تماما ، فقد أعاد سيدنا زكريا – عليه السلام– الجملة هنا بلفظها كل الذي اختلف هنا في الحوار هو زمن وقوع الآية، فهو في آل عمران ثلاثة أيام ،وفي مريم ثلاث ليال ، ومع هذا أضافت الجملة جديدا للسياق ، فالظروف والملابسات في جملتي الحوار مختلفتان فيما بينهما؛ لأن سيدنا زكريا – عليه السلام – عندما طلب من ربه آية في حضور مريم وفي حالة صغرها كان الوقت لما يحن بعد علي تحقيق وعد الله ؛ ولأن سيدنا زكريا – عليه السلام – بشر وهو يحتاج في كل مرة إلي التثبيت والتأكيد ، والاطمئنان ،جاز لنا أن نفهم مغزي تكرار هذا الطلب في الحوار ومغزي تكرار الآية تبعا لذلك ، حيث إن سيدنا زكريا هناك في آل عمران طلب آية من ربه ، فأعطاه الله هذه الآية قبل حمل زوجه ٠أعطاه هذه الآية لطمأنة روعه وتثبيته ، وأما هنا في مريم فقد حان ميعاد مولد يحيي – عليه السلام – وعندما طلب من الله آية جاءت كعلامة علي حمل زوجه، فتكون قد حدثت مرتين وقد تكرر هذا الحوار بين السورتين في مرحلتين مختلفتين

(١)سورة مريم ٠ من الآية (٩)

(٢)سورة مريم ٠ الآية (١٠)

من حياة زكريا – عليه السلام – وهنا يتكامل الموطنان أدبيا ،وزمنيا ،ونفسيا في القصة، ويعطينا صورة كاملة للقصة بجميع مشاهدها ٠

٣- الموطن الثالث للقصة :

إذا جئنا إلي الموطن الثالث الذي يصور فيه القرآن دعاء سيدنا زكريا – عليه السلام – نجد ذلك الموطن في سورة الأنبياء في قوله تعالي : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٠فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .(١)

ويحتوي هذا المشهد علي نداء سيدنا زكريا – عليه السلام ربه – مطلقا عن الزمان والمكان ففي الموطن السابق للقصة في سورة مريم كان زكريا –عليه السلام– ينادي ربه ، وهنا أيضا ينادي ربه إلا أن النداء هنا له خصوصيته فهو نداء غير مقيد بوصف وليس خفيا كالنداء السابق ، ولكنه بصوت مسموع فليس لهذا المشهد حدود تحده ، إلا كلمة إذ ، وليس هاهنا حوار ، وإنما دعاء ، وإجابة فإذا كان زكريا – عليه السلام – قد دعا ربه في المشهد الأول في سورة آل عمران في حال طفولة مريم ، ومع وجودها ،وكان ذلك في المحراب ، وفي مشهد سورة مريم كان يدعو ربه في المحراب وحيدا في آخر عمره ، فإن المشهد هنا يختفي فيه الزمان والمكان ٠

(١) سورة الأنبياء ٠ الآيتين (٨٩ ، ٩٠)

واستخدام القرآن كلمة (فردا) في قوله تعالي : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[1] تعطي خصوصية أخري لهذا الموطن لا توجد في الموطنين السابقين من القصة بحيث يشكل مع الموطنين السابقين ، وحدة شعورية ونفسية لا تنفصل ، فكلمة (فردا) توحي بالوحدة والوحشة ، والانفراد ، والحاجة إلي المعين ٠إن سيدنا زكريا هنا كأنه ذلك الإنسان الذي لزم بيته يوما من الأيام مرغما ، أو طائعا ، ووهنت قواه ، وليس لديه من يقوم بشئونه ، فخاض إحساسا جديد ملؤه الوحدة ٠ وجد نفسه بلا ظهير في الوقت الذي يحتاج فيه لمن يعينه ، وبالتالي لا يعنيه أن يكون هذا المعين من صلبه ، أم لا، كما لا يعنيه الولد من أجل فكرة الميراث فالله – عز وجل – هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، ولا أحد يعرف من سيرث من في نهاية الأمر ؟ لذا يصور السياق سيدنا زكريا –عليه السلام –هنا وكأنه تنازل عن فكرة الأبوة والميراث برمتهما ، وعن أي إحساس آخر في مقابل حاجته للمعين والناصر ؛ لذا اتسق هذا الموقف مع هذا النوع من النداء المطلق الذي يوحي بكونه صوتا يسمعه الناس ؛ إذ إن زكريا – عيه السلام – هنا ليس عنده شيء يخفيه ، ولا يدعو بشيء يتطلب الإخفاء بدا ذلك واضحا من خلال ما يلي: –

١– في هذا المشهد يختفي طلب سيدنا زكريا – عليه السلام – للولد ويحل محله هذا الطلب الجديد الذي يود من الله تحقيقه وهو ألا يذره فردا ٠

٢– تأتي الإجابة بجزئية جديدة تسم هذا الموطن بخصوصية أخري وهي كلمة (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) فلا تأتي الإجابة هذه المرة بالبشري بل بكلمة : (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

(١) سورة الأنبياء ٠الآية(٨٩)

) فإذا كانت الملائكة في الموطن الأول قد نزلت لتبشر زكريا – عليه السلام – بيحيي – عليه السلام – وفي موطن سورة مريم ساق المولي البشري إليه بلا وساطة ، فإنه في هذا الموطن قد حانت لحظة استجابة الله لدعائه بما يتسق مع هذا السلوك في نداء سيدنا زكريا – عليه السلام . الذي يشبه دعاء المضطر ، ولا يهم طبعا أن تكون الإجابة قد تحققت في التو واللحظة ، أو بمرور وقت قصير ؛ لأن السياق الزمني السردي يتطلب هذا ، بينما لا يتطلبه السياق الزمني للقصة في ترتيبها التاريخي [١][*].

وإذا كان القرآن لم يحتف بمشهد ولادة يحيي–عليه السلام– في سورة مريم ، فإن السياق القرآني يحرص – في الوقت نفسه – علي ألا يحدث حلقة مفقودة بالقصة ؛ لذا وجدنا الإشارة لمولد يحيي – عليه السلام – هنا في هذا الموطن في سورة الأنبياء في قوله تعالي : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيِيَ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .[٢]

وهذا الموطن يمتاز بخصوصيته التي تصنع مع ما سبقها من المواطن في القصة تكاملا في السياق ، والأحداث في تسلسلها التاريخي الطبيعي والنفسي وما لذلك من دلالات مختلفة في أسلوب القص إننا في هذا الموطن نعثر علي الحل ونصل إلي النهاية التي توج الله بها صبر زكريا – عليه السلام– يسجلها السياق

(١) (*) التعقيب الذي تفيده الفاء قد يعني ألا يكون بين الحدث الأول والثاني فاصل من نفس النوع ، أي فاصل حدثي وبالتالي ليس شرطا ألا يمر زمن طال أو قصر بين الاثنين ، فقد يمر زمن أو عدة أزمان بين الحدثين وتحتفظ الفاء بمعناها الدلالي ، وقد تدل الفاء علي الترتيب والتعقيب بالمفهوم القريب وهو ألا يوجد بين الحدثين زمن أيا كان هذا الزمن ، فإذا وجد ذلك الفاصل الزمني انحلت دلالتها علي التعقيب ودلت علي مفهوم آخر .

(٢) سورة الأنبياء . الآية (٩٠)

القرآني في قوله تعالي : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَي ﴾ لقد تكرر لفظ الهبة مرتين قبل ذلك ففي سورة آل عمران يدعو زكريا – عليه السلام – ربه بقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[١] وفي مريم ينادي الله قائلا : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً ﴾[٢] وهو أسلوب إنشائي المراد به الدعاء أما هنا فقد عبر السياق بالفعل الماضي ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيِيَ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾٣ فقد أنجب زكريا – عليه السلام– ولده يحيي – هنا ، وتم إصلاح عيب زوجه ،ثم نأتي لقوله تعالي : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [٤] ليسجل جزءا من حياة زكريا – عليه السلام – الخاصة ، وأهل بيته لم يرد في المواطن السابقة ، وهو يعطينا الخلفية التاريخية لحياة هذه الأسرة الكريمة ، ولم استحقت هذه العناية الإلهية من كونها تسارع في الخيرات ، وتدعوا الله دوما في حالتي الرغبة ، والرهبة ، في خشوع ، وخضوع ٠

إذا فقد قدم القرآن لنا مشهد الدعاء والإجابة ، في أكثر من موطن ، وكان لكل موطن مذاقه الخاص ، وأجلسنا في كل مرة علي مائدة مختلفة الطعوم ، والألوان، والروائح ، بحيث تلاقت كل المواطن في – نهاية الأمر– وتعاونت علي إبراز المشهد الكلي ،وعلي إعطائنا صورة كاملة لرحلة الحرمان ، والدعاء لدي زكريا – عليه السلام ٠

(١) سورة آل عمران ٠الآية (٣٨)
(٢) سورة مريم ٠الآية(٥)
(٣) سورة الأنبياء ٠ من الآية (٩٠)
(٤) سورة الأنبياء ٠ من الآية (٩٠)

ومن خلال ما سبق نستطيع القول : بأن تكرار المشاهد القصصية هو من أبرز الطرق التي لجأ إليها القرآن الكريم في عرضه للقصة ،حيث إن لهذا التكرار دلالاته المختلفة التي تتعلق بعناصر القصة مجتمعة ، فتارة يخضع التكرار للهدف الذي يريد المولي – عز وجل إيصاله للمتلقي – كمشهد الكفالة مثلا والذي يسجله القرآن في بداية القصة في سورة آل عمران ، ثم لا يتكرر بعد ذلك لا بالسورة نفسها ، ولا بالقرآن كله ؛ لأنه خضع للهدف القرآني وهو : " إثبات قدرة الله التي تجعل من العدم المحض خيرا مطلقا ، وجودا طيبا ؛ حيث إن الفاكهة والرزق كان يأتيها ليلا ونهارا صيفا وشتاء وإثبات قدرة الله – عز وجل– انجلت من أول وهلة فالأمر لا يقتضي التكرار" .[1]

بينما يقدم القرآن لنا مشهد الدعاء المؤثر العظيم في ثلاثة مواطن : آل عمران : مريم :الأنبياء والسبب يكمن في طبيعة الدعاء التي تقتضي الإلحاح والتكرار والله سبحانه وتعالي يحب من يكثر الطلب وإظهار الحاجة ؛ فاقتضي هذا المعني تصوير المشهد بتلك الطريقة وفي مشهد الدعاء يتمثل هذا المفهوم للوحدة في أجلي صورها حيث نوع القرآن في طريقة عرضه لهذا الدعاء في أكثر من سورة ومع هذا ارتبطت كل جزئية من هذه الأجزاء بالأخرى وتعانقت معها ، فقد كان طلب سيدنا زكريا– عليه السلام– من ربه في سورة آل عمران : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[2] وفي سورة مريم ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾[3] وفي

(١) الجانب الفني في قصص القرآن ، عمر محمد عمر باحاذق ، ص ٥٦ – ط / الأولي ، ١٤١٣هـ –١٩٩٣م / دار المأمون للتراث۰

(٢) سورة آل عمران ۰ الآية (٣٨)

(٣) سورة مريم ۰ الآية (٥)

الأنبياء ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ ﴾[1] والاختلاف الذي ورد بين هذه الأساليب هو ما يشكل الوحدة العضوية للقصة وهي وحدة نفسية وشعورية كاملة ؛ إذ تمثل هذه الأدعية والنداءات ثلاث مواقف نفسية مر بها زكريا – عليه السلام – وقت الدعاء – قد يمر من فقد الولد بموقف منها أو قد يمر بها جميعها في حياته كلها .

ويستطيع المتعمق بدقة في السياق القرآني أن يستشف في كل موطن من هذه المواطن الثلاثة خصوصية بارزة وسمة تميزه عن غيره من المواطن الأخري وتجعله مستقلا في الدلالة علي تجربة سيدنا زكريا – عليه السلام – في القصة ؛ لذا فنحن لا نستطيع أن نكتفي بجزء أو موطن منها للتعبير عن المعني الذي تريد القصة غرسه في الناس ، أو أن نستغني عن موطن من تلك المواطن وإلا عد كحلقة مفقودة وسط السياق العام للقصة وهذا ما تعنيه الوحدة العضوية للقصة القرآنية إنها الوحدة الشاملة الكلية نفسية وشعورية وتاريخية .

كيف تعامل القرآن مع أحداث القصة ؟

جاءت أحداث قصة سيدنا زكريا– عليه السلام– خارجة عن مألوف الناس وعاداتهم ، أو أحداث خارقة للعادة ، فالإتيان بالرزق في غير زمانه، ومكانه حدث خارق للعادة ، ومثله امتناع سيدنا زكريا–عليه السلام–عن النطق من غير ما علة أو مرض ، وإنجاب سيدنا زكريا لولده يحيي –عليه السلام– في هذه السن وكون امرأته عاقرا ، ومع ما لهذه الأحداث الخارقة من تأثير علي مجريات القصة ودلالاتها ، فهي – أيضا – أحداث حقيقية يجب علينا الإيمان بها، فليست أحداثا

(١) سورة الأنبياء . الآية (٨٩)

مفتعلة لخدمة السياق كما هي في القصة البشرية ، ومن هنا كانت خصوصية الحدث القرآني : "٠٠تأثير القصة ليس مبعثه تخير موقف معين ، أو حدث بذاته كما هو في القصة البشرية ٠٠٠ ، بل إنها تفعل فعلها في المشاعر ، والأحاسيس غير أن يكون فيها موقف معين أراده الحق – عز وجل– فإن كل سلسلة فيها ، وكل جزئية قد صورت الواقع – وعلي هذا اتسمت القصة القرآنية بسمات الإعجاز ما دامت لم تجنح إلي الخيال في تأثيرها ، وإلي التقاط بعض المواقف لكي يكون وقعها أشد ، ورنينها علي الأسماع أقوي نغمة ". (١)

ومما ميز أسلوب القرآن في عرضه لهذه الأحداث وجود عامل التشويق ، وكأنه يرفع الستر شيئا ، فشيئا عن مضمون الأحداث السابقة ، بما يعطي هذه السببية التي وجدناها في بناء القصة ، فسيدنا زكريا في سورة مريم يطلب من ربه آية فيخبره الله بوقت وقوعها ليلا ثم ترسم الفاء وقوع الحدث مباشرة في قوله تعالي : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىَ قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَي إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(٢) فزكريا – عليه السلام– خرج علي قومه عقب الحوار مباشرة محدثا إياهم بلغة الإشارة لكونه لا يستطيع النطق بما يوحي بكون هذه الآية تحققت ليلا، وهذا الليل يوضح لنا لماذا كان النداء خفيا في بداية المشهد ، فهنا تناسب بين ظلام الليل ووصف النداء بكونه خفيا ، فتترابط الأحداث ، والمشاهد السابقة واللاحقة بقانون السببية وهو ما يميز الحبكة القصصية ، وإن كان القرآن الكريم لم ينقل لنا الفن الأدبي، وإنما نقل الحقيقة كما هي ، وإذا فالقصدية الأدبية هي التي تفصل بين الحبكة القرآنية للأحداث ، والحبكة البشرية ٠

(١) الجانب الفني في قصص القرآن الكريم – عمر محمد عمر باحاذق– ص١٥٠،١٤٩

(٢) سورة مريم ٠ الآية (١١)

وقد تأتي الأحداث التالية مفسرة لمضمون حدث سابق بالقصة ، وعندما نصل إلي نهاية هذا الموطن من القصة ، نجده وقد كشف اللثام عن التفاصيل التي حواها الحدث في صورة رائعة تطابق بين فحوي الحدث ، وما يترتب عليه لاحقا من صراعات ومواقف حتي كأنه تلخيص للمشاهد التي تعقبه ؛ فالرزق الذي جاء من عند الله دون سبب في مشهد الكفالة في سورة آل عمران جاء مطابقا لإنجاب زكريا –عليه السلام – لابنه يحيي – عليه السلام– دون سبب في سورة مريم، وامتناعه عن النطق كدليل وآية رغم عدم المانع فكانت قصته كلها خارجة عن قانون الأسباب .

وإذا دققنا في المواطن الثلاثة ، لاحظنا أن القرآن لم يطوف حول ذلك الحدث الختامي والأهم في حياة سيدنا زكريا – عليه السلام – ولادة يحيي –عليه السلام و تصوير الفرحة التي عمت بيت نبي الله : زكريا–عليه السلام– بقدوم الغلام المرتقب إذا ما قسنا هذا الحدث بحدث مشاكل له وهو : ولادة عيسي –عليه السلام – مثلا فالحدثان خارقان للعادة ، وإذا ما كان لي من اجتهاد حول هذا فإني أري – إن لم أكن مخطئا – أن ذلك يرجع إلي اختلاف المقصد من وراء الحدثين ، فالسياق القرآني عندما يقص علينا ولادة عيسي – عليه السلام – يدلل علي كونها ليست حدثا خاصا بفرد بعينه ، حيث يخاطب مريم المستبعدة لهذا الأمر بقوله : ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِياً ﴾[1] أما ولادة يحيي – عليه السلام – فقد كانت حدثا له خصوصيته،حيث يخاطب المولي – عز وجل – زكريا –عليه السلام –هنا بقوله : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ

(١) سورة مريم ٠ من الآية (٢١)

عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[1] ، والمقصد من ورائه أن يستوحي الرسول –صلي الله عليه وسلم –من هذه المعاناة التي جاءت بالقصة درسا في البلاء وأسسه ، ومفرداته ، وطريقة التغلب عليه أو من يمر بذلك الفقدان والحرمان من المؤمنين ٠

إن الاحتفاء بمشهد ولادة عيسي عليه السلام دون مشهد ولادة يحيي – عليه السلام – وهما حدثان خارقان للعادة لا يتمايزان في درجتهما لا يعني إلا أن القرآن لا يحتفي بالحدث الخاص في مقابل الحدث العام ، والذي صرح القرآن بأن مولد عيسي – عليه السلام– جاء لتأكيده ، والله أعلم ٠

١ – سورة مريم ٠ من الآية(٩)

المطلب الثاني

تصوير الجانب الإنساني في القصة

الصورة الأدبية في القصص القرآني من الخصائص البارزة في تجسيد المعني وتقريبه ، إنه يخلع الحياة علي كل ساكن ميت فإذا به ينتفض ، وتدب فيه الروح ويتحرك ومن ثم كان التصوير : " الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة لسان ، إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة وخصيصة شاملة ، وطريقة معينة يفتن في استخدامها بطرائق شتي ، وفي أوضاع مختلفة ولكنها ترجع في النهاية إلي هذه القاعدة الكبيرة قاعدة التصوير". (١)

ولا يغفل الذكر الحكيم تصوير الشخصية الإنسانية في قصصه وإن كان ما يمتاز به القرآن في هذا الجانب هو أنه يصورها من الداخل ، فالقرآن يدع الشخصية تكشف عن نفسها من خلال الحوار أو الموقف ، أو الحدث في صورة طيعة واقعية لا تزييف فيها ولا تمويه.

ومن الشخصيات الإنسانية التي ظهرت في قصة سيدنا زكريا – عليه السلام– البطل الأساس : نبي الله زكريا – عليه السلام – ومريم الشخصية الرئيسة في مشهد الكفالة الذي قدمه القرآن لنا في سورة آل عمران ، وأما الشخصية الثالثة فهي شخصية نبي الله يحيي – عليه السلام – وشخصية الزوجة وقد اعتني القران الكريم عناية كبيرة في وصفه لحال سيدنا زكريا–عليه السلام – في كبره ، ودقق

(١) نظرات في قصص القرآن – محمد قطب عبد العال ، ص ١٥

السياق في وصف شيخوخته ؛ وأعطانا صورا متعددة لذلك الكبر صورا تمتلئ بالحركة ، والحياة ٠

وإذا كان النص القرآني لم يعرض لنا حياة سيدنا زكريا – عليه السلام – فيما قبل الكفالة ، فإنه قد عرض لنا من خلال مشاهد القصة ما نود معرفته عن الجانب الإنساني في حياة هذه الشخصية من خلال الحوار والمواقف كما أشرنا إلي ذلك من قبل : " إن القرآن الكريم عندما يجلي لنا بطل القصة ، بل وجميع أشخاصها نستطيع أن نحلل الشخصيات ونقف علي معالم الأشخاص من غير أن يعطينا القرآن شيئا من الأساليب الابتكارية والصور المطلية بالعبارات التوضيحية الخيالية " . (١)

ونبدأ من سورة آل عمران وفي مشهد الكفالة تحديدا يعطينا السياق القرآني وصفا لسيدنا زكريا – عليه السلام – من خلال إيحاءات العبارة القرآنية وليس بالوصف المباشر في قوله تعالي : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ ﴾(٢) فكلمة كلما توحي بكونه نشيطا في الزيارة لم يتخل عن أداء واجبه ، وفي قوله تعالي : ﴿ فَنَادَتْهُ المَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ ﴾ (٣) توحي جملة وهو قائم يصلي بهذا العشق الشديد للصلاة وبما يؤكد علي حرصه علي التعلق بربه في كل وقت فهو لا يفتر ، ولا يتواني عن ذلك ٠

(١) الجانب الفني في قصص القران الكريم – عمر محمد عمر باحاذق ، ص١٢٧
(٢) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٧)
(٣) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٩)

ومن هذه الجمل التي وصف بها سيدنا زكريا – عليه السلام نفسه – وكأنه يتحدث عنها في قوله تعالي : ﴿ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ ﴾[1] حيث يسند الفعل بلغ هنا إلي الضمير الذي يعود إلي الكبر وتنسيق العبارة القرآنية هنا جاء في غاية الروعة ، حيث صورت الكبر الذي صار فاعلا وكأنه يسعي خلف زكريا– عليه السلام مهرولا، مكشرا عن أنيابه يريد أن يدركه ، وهو يبدو في صورة الهارب الجاد في الهرب إنه يحاول الفرار من قبضة الزمن ، وهو ما نشعر به جميعا في تلك الفترة التي يخط الشيب فيها رءوسنا ، ولكننا لا نستطيع في النهاية المقاومة والعدو حتي نقع في قبضته، إنها صورة دقيقة حوت جميع التفاصيل عن التجربة النفسية والشعورية لتلك المرحلة من عمر الإنسان ، لقد انجلت هذه المسابقة بين زكريا – عليه السلام – والزمن عن وقوع زكريا –عليه السلام – في قبضته بما بعثه إليه من نذر الشيب ، وبداية وهن القوي ، والصورة متعددة التفاصيل ؛ إذ تعطينا مع هذا إيحاء بأنه وإن كان أدركه الكبر الآن ، فإن به بعض القوة هذه القوة الجسدية التي تتطلبها كفالته لمريم –عليها السلام –وفي قوله تعالي : ﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [2] وهذه صورة أخري لا تقل في إيحاءاتها النفسية والشعورية عن الصورة التي تسبقها وتضفي علي المشهد نوعا من الوجوم والحزن وعدم الجدوي ٠

وتلك الصورة تقابلها صورة أخري ترد في سورة مريم عندما يصف سيدنا زكريا نفسه بقوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا ﴾[3] إذ تصور هذه الجملة الحركة الأمامية وكأن سيدنا زكريا –عليه السلام – يسير في طريق الكبر وحده يواجه

(١) سورة آل عمران ٠ من الآية (٤٠)
(٢) سورة آل عمران ٠من الآية (٤٠)
(٣) سورة مريم ٠ من الآية (٨)

رياحه المختلفة التي تتزايد يوما بعد يوم ، ولكنه لا يستطيع أن يكمل السير ؛ بسبب أن هذه الرياح قد بلغت أوج قوتها ، وتحولت إلي رياح عاتية ، أما الصورة السابقة فبرغم ما حوته من تفاصيل فنية إلا أنها عبرت عن الحركة الخلفية فسيدنا زكريا في تلك الصورة يفر راجعا إلي الخلف خوفا من أن يقع في قبضة الكبر .

ونأتي لصورة أخري من الصور التي يرسم فيها السياق القرآني شيخوخة زكريا – عليه السلام – بما لها من روعة في قوله تعالي : ﴿ وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[1] وتحتوي هذه الصورة علي الشكل ، والحركة واللون ، ترسم جملة (وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي) شكل هذه العظام الدقيقة الناحلة وكم فيها من دلالة علي هذا الكبر ، ويشير الزمخشري إلي هذه الخاصية التي توفرت للصورة بقوله : " وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن وتداعي وتساقطت قوته.. كان ما وراءه أوهن ".[2]

فإذا جئنا إلي الجزء الثاني من هذه الصورة في قول سيدنا زكريا ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[3] تصور كلمة اشتعل حركة الشيب السريعة في الماضي ، وشكل الحركة نفسه المخيف ، والمؤلم ، وتنقل لنا لون الرأس ، وهو يشتعل بالشيب الأبيض بالإضافة إلي ما في هذه الصورة البلاغية من تفنن : " فأصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ وحقيقته كثرة شيب الرأس ،إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدا سريعا ، صارت في الانتشار، والإسراع كاشتعال النار، وله موقع في البلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر في الرأس انتشارا لا يتلافي كاشتعال

(١) سورة مريم ،الآية (٤)

(٢) الكشاف – الزمخشري – ج٤– ص ٥ ،٦ ط / مكتبة العبيكان ، د/ت .

(٣) سورة مريم . من الآية (٤)

النار وهذا لون من التخييل بديع ، يتمثل في تلك الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون ٠٠ وهي حركة معبرة ومصورة معا فيها حياة ، وفيها جمال ٠٠يذكرنا بأن الجمال ليس وحده فيما فيها من استعارات لطيفة ، بل وبما فيها من دقة النظم وبراعة التنسيق وإحكام التأليف " .[١]

ونحن لا نستطيع أن نفصل قصة سيدنا زكريا عليه السلام عن قصة مريم – عليها السلام – أو نقول بأن شخصية مريم – عليها السلام – هنا في قصة زكريا – شخصية ثانوية أو مساعدة ، لأن قصة سيدنا زكريا – عليه السلام – إنما انبثقت من قصتها هي ، فإذا جئنا إلي تصوير القرآن لشخصية مريم – عليها السلام – في قصة زكريا – عليه السلام – فهي تلك الطفلة المعجزة التي نشأت وربيت في عناية الله ، وصنعت على عينه ، فزكريا عليه السلام كافل لمن ؟ لمريم تلك الفتاة قوية الإيمان جليلة القدر ؛ ولذا جاء هذا التصوير في قوله تعالي: ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[٢] وما أجمل هذه الكلمات التي تصف الكفالة الربانية التي سبقت كفالة زكريا – عليه السلام– ! ولنتأمل لفظة الإنبات توحي بهذا التعهد المستمر ، وتصور تلك العناية التي لازمت هذه المولودة ليس من صغرها فحسب بل منذ أن كانت ماء جاريا في صلب أبيها، وهذا الوصف الدقيق ، والصورة المعبرة التي رسمها القران – لمريم عليها السلام – أكدتها مجريات الأحداث لذا فإن الله – عز وجل كان يرزقها من عنده دون أسباب وعندما سألها سيدنا زكريا – عليه

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم – صلاح الدين عبد التواب ، ص ٦٣ ، ط / الأولي ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ١٩٩٥م

(٢) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٧)

السلام – عن مصدر هذا الرزق ؛ جاء ردها بكل ما يحمله من معاني الإيمان والذكاء : ﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (١)

وأما شخصية يحيي بن زكريا – عليهما السلام – وهي الشخصية الثالثة فقد قدم القرآن لنا وصفا أخلاقيا لها في أكثر من موضع وتحديدا في مواطن الحوار المتعددة بين السور ففي سورة آل عمران يصف القرآن سيدنا يحيي – عليه السلام – بصفات أخلاقية جميلة فهو سيد ، وحصور ، ونبي من أنبياء الله الصالحين كما ورد في الآية (٣٩) وفي سورة مريم – يخبرنا القرآن بصفة مميزة لسيدنا يحيي – عليه السلام– تجلت في اسمه حيث إن الله – عز وجل – لم يجعل له من قبل سميا ، ويتابع القرآن وصفه لسيدنا زكريا – عليه السلام – بقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا ۝وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾(٢) وقد حوي النص القرآني هنا علي ست صفات لسيدنا يحيي – عليه السلام – فهو من العقل ، والنضوج المبكر ما جعله حكيما وموضع ثقة في تحمل المنهج منذ صغره ، ووهبه الله الحنان ، كما وصفه بالنمو العقلي ، والأخلاقي تلك الزيادة في كل شيء ، والتي توحي بها كلمة (وزكاة) التي تعني النماء ، وهو : مثال للتقوى وهو بار بأبويه ، وليس جبارا أو عصيا ، وأنه استحق السلام عليه في تلك المواطن الثلاث التي يحتاج الإنسان فيها الي السلام وهي : لحظة الميلاد ، ولحظة الموت ، وموقف البعث۰

أما الشخصية الرابعة فهي شخصية الزوجة والتي وصفت في السياق بأنها عاقر في ثلاثة مواضع : الموضع الأول في آل عمران في قول سيدنا زكريا – عليه

(١) سورة آل عمران ۰ من الآية (٣٧)

(٢) سورة مريم ۰الآيات (١٣ ، ١٤ ، ١٥)

السلام – : ﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾[1] وفي سورة مريم يتكرر وصف سيدنا زكريا – عليه السلام لزوجه بالعقر مرتين في قوله : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾. [2]

وقوله : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًا ﴾[3] بينما في سورة الأنبياء يشير القرآن إلي أنه قد تم إصلاح هذا العيب فيها ، و يشير السياق إلي كونها كانت تسارع في الخيرات ، وتدعو الله رغبا ،ورهبا ، وفي ذلك دلالة علي تقواها .

لقد توارت شخصية الزوجة هنا فلم تظهر علي ساحة الحدث بكلمة ، أو موقف أو حوار وهو نفسه ما حدث مع ابنها يحيي – عليه السلام – باستثناء هذه الصفات الكثيرة الجميلة التي تحلي بها ، ولكننا إذا تأملنا في السياق بعمق أدركنا عظمة السياق القرآني في جمع كل هذه الشخصيات في موطن واحد من القصة ؛ إذ تشغل قضية الرزق كل هؤلاء من الآباء ، إلي الأبناء ، فأم مريم تشغلها هذه القضية ، وتود لو أن المولود ذكرا ، فيرزقها الله – عز وجل – بمريم الأنثي بعد إياس لينتقل السياق إلي زكريا – عليه السلام – فنراه مهموما بهذه القضية أيضا، حتي إنها لتشمل كل قصته وتشكل أحداثها .

المطلب الثالث

المكان والزمان في القصة

١ – سورة آل عمران . من الآية (٤٠)

٢ – سورة مريم . من الآية (٥)

٣ – سورة مريم . الآية (٨)

لم يقف السياق القرآني عند المكان في القصة طويلا رغم أن كل المشاهد الأساسية بالقصة تدور وسط أروقته وكل الحوار بين الشخصيات أو بين زكريا – عليه السلام ورب العزة –جل في علاه– يدور أيضا في هذا المكان ومع هذا لم يعطنا السياق القرآني أي ملامح له اللهم إلا اسمه ، أو الإيحاء إليه ويظل ثابتا لا يتغير حتي نهاية القصة ، ولا يعني هذا أن القرآن الكريم يبخس هذا العنصر القصصي حقه فنيا فإن المكان في القصة :" وإن كان قوة عاملة في تشكيل الأحداث ، وإبراز معالمها فإنه يجئ في المنزلة بعد الزمن بمراحل عديدة ٠٠؛ ذلك أن الزمن يؤثر في الحدث تأثيرا مباشرا ، سواء أظهر الزمن ظهور عيان علي مسرح الحدث الذي ترويه القصة ، أم لم يجر له ذكر فيه ٠٠فإنه منظور إليه في كل تطور وفي كل انتقال بالحدث من حال إلي حال ٠٠؛ لأن أيا من ذلك لا يتم إلا في زمن ٠٠، أما المكان فليس له هذا الأثر البعيد في صنع الحدث ، وفي تطوره فقد يعيش ويتطور، وينمو في مكان واحد لا يتحول عنه ". (١)

يبدأ القرآن في تحديده للمكان القصصي في سورة آل عمران في قوله تعالي :﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾(٢) حيث يشير القرآن إلي المكان ويوحي به وفي قوله تعالي ﴿ فَنَادَتْهُ المَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ﴾(٣): يذكر اسم المكان تصريحا ، حيث خضع تحديده للغرض من القصة ، فالمكان هنا هو :بيت العبادة ومحل الدعاء ، والصلاة ، وهو ما يعطيه ملمحا يتسم بالتقديس ، والتعظيم ٠

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه – عبد الكريم الخطيب – ص ٩١، ٩٢
(٢) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٨)
(٣) سورة آل عمران ٠ من الآية (٣٩)

ويظل المكان ثابتا في الجزء الثاني من القصة الذي ورد في سورة مريم ولكنه يعطي تفصيلا ، واهتماما أكثر حيث نجد قوله تعالي :﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾[1] فهو وإن لم يشر إلي المكان فإنه يلحظ من خلال ثنايا الكلمات فإذا كان زكريا – عليه السلام – قد رفع صوته بالدعاء هنا ليسمع نفسه ، ويجأر إلي الله بصوت مرتفع ، فإنه قد حرص في الوقت نفسه علي أن لا يسمع هذا النداء أحد وهو ما يعني أنه التمس مكانا في المحراب تتحقق فيه هذه الخصوصية المكانية ،وهو ما يوحي باتساع ، وعمق هذا المكان من المحراب إن الكلمات هنا تعاونت في إخراج هذا المشهد علي هذه الصورة الرائعة ويظل الأمر علي هذا حتي يظهر المكان مرة أخري في نهاية هذا الموطن من القصة في قوله تعالي : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[2] دلالة علي أن مكان الأحداث لم يتغير من أول الحوار ، بل ظل كما هو تتغير الأزمنة ، بل ربما تتعاقب السنون عليه ، وتتحرك المواقف ومع هذا لا يتغير .

وإذا كان السياق القرآني في القصة قد أشار إشارة عابرة للمكان في سياق الأحداث فإنه قد اهتم بالزمان القصصي ، ولكنه تعامل معه بمنهجية القرآن في قصصه والتي لا تؤرخ للأحداث تأريخا إحصائيا ، بل أخذ الزمن في القصة هذا الشكل الساكن ، أو الذي تراه فتحسبه ساكنا لا يتحرك ، بينما هو في الواقع يتحرك حركة سريعة ، ويقفز فوق المشاهد ، والتفاصيل الصغيرة لنري أنفسنا فجأة بين الماضي ، والحاضر ، والمستقبل لذا فإن القرآن في مشاهد متعددة من القصة يستخدم الفاء التي تدل علي الترتيب ،والتعقيب في قوله تعالي : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ

(١) سورة مريم ١٠الآية (٣)

(٢) سورة مريم ١٠ الآية (١١)

وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ ﴾[1] وفي قوله تعالي في سورة الأنبياء ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَي ﴾[2] حيث ترسم الفاء هذه السرعة الشديدة في استجابة الله لهذا الدعاء وهو ليس بمستغرب في إجابة الله للمقربين ،والأنبياء ، والصالحين من عباده ٠

وفي مشهد سورة مريم عندما يخرج سيدنا زكريا – عليه السلام – علي قومه مشيرا لهم يعبر القرآن عن هذا المشهد مستخدما أكثر من فاء في التعبير :﴿ فَخَرَجَ عَلَي قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَي إِلَيْهِمْ أن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِياً ﴾. [3]

ولذا فإن من خصائص السياق الزمني في القصة أنه يتكئ علي الفعل بأشكاله الثلاثة ، وطريقة رصفه داخل العبارة ، ويتحدد معامل الزمن من خلال الأفعال الثلاثة غير منفصلة عن جملتها ، ويخضع الفعل المعبر عن الزمن للغرض الذي يتخفي وراء رسم القرآن للصورة بطريقة ما ٠

وفي قصة سيدنا زكريا– عليه السلام – هنا يميل القرآن إلي إيثار استخدام الفعل الماضي في أغلب مشاهد القصة إلا إذا اقتضي الغرض القرآني استخدام المضارع ، وهذا ما يميز طريقة القرآن في بناء الزمن القصصي : " زمن مطلق من كل قيد إلا قيد الماضي ٠٠ فليست لهذا الزمن ولا لجزئياته حدود تحده بالنسبة للزمن الذي يظلنا ٠٠؛ إذ إن قرب هذا الحدث أو بعده منا في أي زمن من الأزمان

(١) سورة آل عمران ٠الآية (٣٩)
(٢) سورة الأنبياء ٠ الآية (٩٠)
(٣) سورة مريم ٠الآية (١١)

لا يؤثر فيما يحمل الحدث من مواقع العظة والاعتبار ..التي لا تتغير في أجيال الناس والتي لا تختلف في زمن عن زمن ". [1]

وإذا أردنا أن نعرف ذلك فلننظر إلي كم الأفعال الماضية التي استخدمها السياق القرآني في القصة لتتبين هذه الحقيقة في مشهد الكفالة : (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ)– (وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا)– (قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّي لَكِ هَذَا)– (قَالَتْ هُوَ مِن عِندِ اللهِ) وفي مشهد الدعاء في سورة آل عمران (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ) (فَنَادَتَهُ المَلاَئِكَةُ) – (قَالَ رَبِّ) – (بَلَغَنِيَ الكِبَرُ) – (قَالَ كَذَلِكَ اللهُ) – (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً) –(قَالَ آيَتُكَ) وفي سورة مريم نجد هذا الأسلوب نفسه ، ويزداد في المشهد الحواري خاصة : (إِذْ نَادَي رَبَّهُ) – (قَالَ رَبِّ) – (وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي) ، (وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْبًا) – (وَلَمْ أَكُن) – (خِفْتُ المَوَالِيَ) – (كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) – (بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا) – (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ) – (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ) – (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً) – (قَالَ آيَتُكَ) – (فَخَرَجَ عَلَي قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَي إِلَيْهِمْ) (وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا) – (وَكَانَ تَقِيًّا) وفي سورة الأنبياء (إِذْ نَادَيَ رَبَّهُ) – (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَي وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) .

كان يمكن للقرآن أن يستخدم الأفعال المضارعة بدلا من الماضية ، وسيكون ذلك في خدمة السياق الأدبي ؛ إذ المضارع يدل علي استحضار الصورة، وكأنها واقع مشاهد للعيان ، لكن هذا ما تنبئ به النظرة القاصرة للسياق في القصة ؛ إذ كان وجود أكثر من حدث خارق للعادة بالقصة كوجود الرزق من غير سبب ، وصمت زكريا –عليه السلام –وعدم قدرته علي النطق من غير علة أو مرض، وولادة يحيي – عليه السلام– في هذه السن المتأخرة كل هذا يناسبه الفعل الماضي

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : عبد الكريم الخطيب ، ص ٩١

الذي يفيد التحقيق وحتمية الوقوع ، فذلك هو الأنسب للمقام ؛ إذ القرآن عن طريقه يحرص علي التأكيد علي كل ما جاء بالقصة من أحداث وتاريخ وعدم إعطاء العقل البشري فرصة كي يفكر في استحالة إمكانية هذه المشاهد .

ثمة أمر آخر ندركه من خلال تتبعنا لجزئيات المشهد الحواري الذي جري بين زكريا – عليه السلام – وبين المولي عز وجل ، أو الملائكة كواسطة في سورتي آل عمران ومريم وهو : ازدحام أسلوب الحوار بمفردات الفعل الماضي (قال) خاصة ففي سورة آل عمران علي سبيل المثال تكون الجملة الحوارية كالآتي:

(قَالَ رَبِّ أَنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ) – (قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) – (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً) — (قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا) وفي سورة مريم نجد هذا الأسلوب أيضا : (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهنَ العَظْمُ مِنِّي) – (قَالَ رَبِّ أَنَّي يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) – (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) – (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً) – (قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) ، فكثرة التعبير بالفعل (قال) يأخذ بالبناء القصصي هنا تجاه الشكل الروائي أو أسلوب الرواية كما يقول الأدباء ومن مميزات أسلوب الرواية أنه لا يدع مجالا للتدخل في سياق القصة ، فالرواية القرآنية :" تؤذنك بأنك تسمع أخبارا قد ذهب أشخاصها في التاريخ وانتهي دورهم في الحياة وأنها في هذا العرض إنما هي في بعث جديد قد جاءت تسعي إليك آو انك في رحلة زمنية عبر القرون الماضية إليها فهي حاضرة غائبة معا تحدثك بلسانها وتسمعك قولها ". (١)

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه – عبد الكريم الخطيب – ص ٨٠

وللسياق القرآني في القصة القدرة علي اختراق عامل الزمن ، فمثلا يخرج السياق هنا من الحاضر ، إلي المستقبل دون أي إشارات للزمن الخارجي في قوله تعالي في سورة آل عمران علي لسان الملائكة : ﴿ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَي مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) ونري الزمن يطوي فنري يحيي –عليه السلام –نبيا مصدقا بكلمة من الله ، وسيدا ، وحصورا ، ونبيا من الأنبياء.

إن الزمن القصصي هنا يتقدم إلي الأمام ،ويخترق كل حواجز الواقع ،ويصور ملامح المستقبل بكل دقة ،وهذا ما لا نعهده في الحوار الطبيعي بين البشر لكون هذه البشري تأتي ممن يملك الأسباب ، لا ممن تقيده الأسباب.

أما المضارع فلا يتم استخدامه إلا إذا كان الغرض يقتضي ذلك ففي قوله تعالي : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ ﴾ (٢) تصور الجملة باستخدام المضارع الاجتهاد الشديد في العبادة من قبل زكريا – عليه السلام – بما لها من دلالة علي قوة زكريا – عليه السلام – هذه القوة التي ما زالت في جسده والتي تقتضيها كفالة مريم.

وفي مشهد المسابقة علي الكفالة يستبدل السياق الفعل المضارع بالماضي في تصوير هذا الحدث وذلك في قوله تعالي :: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ

(١) سورة آل عمران . الآية (٣٩)
(٢) سورة آل عمران . الآية(٣٩)

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. (١)

ولنتأمل بالسياق الأفعال (يُلْقُونَ – يَكْفُلُ – يَخْتَصِمُونَ) وجاء التعبير بالفعل المضارع الذي يفيد الآنية هنا ؛ لأنه الأقدر علي نقل هذا المشهد وتصويره وكأننا نشاهد حرص كل فرد علي الفوز بالكفالة ما يوحي بقوة الخصام ،والنزاع حولها ، حتي إنك لتكاد تسمع دقات القلوب أثناء إلقاء القوم أقلامهم ، وأثناء انتظار ما يسفر عنه السباق من نتائج ،مما يساعد علي استحضار الصورة كأنها حية ملموسة ،ونقل مشاعر الأطراف المتخاصمة٠ ومن هنا يبدو ارتباط هذا الجزء بما يعقبه مما تبقي من مشهد الكفالة ،وكأنه يوحي بالسبب الذي جعل زكريا – عليه السلام – يحرص كل هذا الحرص علي كفالة مريم – عليها السلام – من تواجد هذا الشعور الفطري لديه من الشوق إلي الإحساس بالأبوة وهو أمر مرتكز في الجبلة الإنسانية لا يعيب النبي في شيء٠

أما الزمن الخارجي أو الفلكي فيسجله المولي – عز وجل بالقصة في موطنين يرد الموطن الأول في سورة آل عمران في قوله تعالي – : ﴿ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[٢] حيث يحدد القرآن الوقت الذي ستحدث فيه هذه الآية فيظهر الزمن الخارجي أو الفلكي بما له من تأثير ينعكس علي معني السياق ٠

(١) سورة آل عمران ٠ الآية (٤٤)

(٢) سورة آل عمران ٠ الآية (٤١)

وفي سورة مريم يحدد السياق المدة التي تقع فيها الآية بقوله : ﴿ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾[1] هنا في السياق في مقابل كلمة (ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ) التي وردت في آل عمران لاحظنا أن تحديد الزمن في السياقين له مدلوله ، ومعطياته التي تخص كل مرحلة من مراحل القصة ،أو كل حلقة من حلقاتها ،فوقت حدوث الآية في آل عمران هو اليوم بما يحويه من نهار يوحي في السياق بالضوء والنور اللذين يرمزان إلي الأمل الفتي القوي الذي يملأ قلب هذا النبي الكريم ، بينما الليل هنا بما يشيعه من الظلمة ، والوحشة ، والسكون يناسب تلك المرحلة العمرية المتقدمة والأخيرة من حياته ،إنها الوحدة والكبر، وعلي هذا يظهر الزمن القصصي عندما يستدعيه السياق مرتديا لباسا مناسبا في كل مرة ،

وإذا كان تحديد الليل وقتا لحدوث هذه الآية الكبيرة دلالة يبرز من خلالها المعني في أكمل وجه إلا أن توقيت الحدث القصصي القرآني هنا في مقابل التوقيت السابق لموطن القصة الأول الذي ورد في آل عمران قد لا يوحي بتطور الحدث نفسه زمنيا ، بقدر ما يوحي بكونه حدثا واحدا وقع في زمانين مختلفين لهذا يعطي لغير المتأمل بعمق أن الموطنين معا إنما يعبران عن مشهد واحد ،وأن ثمة تداخلا بين الليل هنا واليوم هناك في آل عمران ؛إذ كان من معاني اليوم لغة: " الوقت المطلق ليلا ، أو غيره ، قليلا ، أو غيره كيوم الدين لعدم الطلوع والغروب حينئذ ". [2]

(١) سورة مريم ، الآية (١٠)

(٢) الكليات – أبو البقاء الكفوي ، ص٨١ ، ط/ الثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م

لكن تجولنا في السياق منذ بداية القصة ،واستعراضنا لمشاهدها في كل أطوارها ومواطنها في السور تؤكد حقيقة تطور، وتتابع المشاهد التي بني اللاحق منها علي ما سبقه ٠إن التتابع الزمني كان موجودا من خلال لغة السياق ، وهذا ما أثار القضية حول معني التكرار في هذه الآية ووجهه حيث ينقل الآلوسي معظم هذه التصورات في قوله عند تفسير هذه الآية : " وقال بعضهم ثلاثة أيام ولياليها وقيل الكلام علي حذف مضاف أي : ليالي ثلاثة أيام ٠٠والحق أن الآية كانت عدم التكليم ستة أيام إلا إنه اقتصر تارة علي ذكر ثلاثة أيام منها ، وأخري علي ثلاث ليال ، وجعل مالم يذكر في كل تبعا لما ذكر قيل : وإنما قدم التعبير بالأيام ؛ لأن يوم كل ليلة قبلها في حساب الناس يومئذ ، وكونه بعدها إنما هو عند العرب خاصة كما تقدمت الإشارة إليه ، واعترض بأن آية الليالي متقدمة نزولا ؛ لأن السورة التي هي فيها مكية ، والسورة التي فيها آية الأيام مدنية وعليه يكون أول ظهور هذه الآية ليلا ويكون اليوم تبعا لليلة التي قبلها علي ما يقتضيه حساب العرب٠٠" .[1]

والقول الأول الذي عرضه العلامة الألوسي لايخدم التتابع الزمني الذي رسمه القرآن في القصة ؛ إذ سيكون الليل في سورة مريم داخلا في اليوم الذي أشار إليه السياق في آل عمران بما يدلل علي كونه مشهدا واحدا عرضه القرآن بأكثر من طريقة ، وبهذا لا يضيف التكرار بأوجهه المختلفة جديدا للسياق الزمني في كل مرة ، بل يضيف جديدا للمعني ٠

(١) روح المعاني ، ج٣ ، ص ١٥٠، ١٥١

فإذا أتينا للاعتراض الذي ساقه الألوسي من أن آية الليالي متقدمة نزولا فيكون أول حدوث هذه الآية ليلا ، فهو اعتراض ليس في محله ؛ لأنه لا علاقة مطلقا بين ترتيب نزول السور القرآنية زمنيا ، وترتيب الأحداث داخل القصة القرآنية وإلا كان مشهد الكفالة قد ورد في سورة مريم المكية ؛ لأنها متقدمة زمنيا في نزولها ، ولكنه ورد في سورة آل عمران مدنية النزول .

ولو أننا أخذنا اليوم بمعناه العرفي والشرعي وهو : "عرفا : مدة كون الشمس فوق الأرض ، وشرعا : زمان ممتد من طلوع الفجر الثاني إلي غروب الشمس ". (١)

لو أننا أخذنا اليوم بهذا المفهوم وهو المفهوم الذي يتعامل به القرآن مع هذه اللفظة في كل المواطن القرآنية فيما يخص التشريع والتكليف ، وحتى مع غير التشريع والتكليف ، لكان اليوم في ذلك الموطن من القصة في سورة آل عمران يختلف عن الليل تحديدا في هذا الموطن في سورة مريم ، بما يعطي تتابعا زمنيا للحدث يكتمل به المشهد الكلي للقصة لأننا يجب أن نضع في اعتبارنا ما حرص عليه القرآن الكريم من عرض القصة في سياقها التاريخي.

(١) الكليات – أبو البقاء الكفوي ، ص ٩٨١

خلاصة أهم نتائج البحث

كانت هذه وقفة متأنية للتأمل في قصة نبي عظيم حاولت أن أستلهم منها العبر والدروس عن الصبر ، والتحمل ، في تجربة خاصة بهذا النبي بل شديدة الخصوصية ، كما كان هذا البحث محاوله لإلقاء الضوء علي ما حواه السياق القصصي من سبق للإبداع البشري فيما يخص عناصر القصة عامة ، وما امتازت به قصة سيدنا زكريا – عليه السلام – خاصة من أسلوب يحتوي تجربة من هذا النوع من التجارب الشخصية لنبي من الأنبياء ، وتتبعها لنهايتها ، وقد خرجت الدراسة ببعض الحقائق والنتائج التي استخلصتها من خلال سيري فيها ومن أهم هذه النتائج ما يلي :

أولا : – أن القصة القرآنية لا يصح موازنتها بغيرها من القصص العادي الذي يكتبه البشر وإن توفرت فيها كل العناصر، والمقومات الفنية التي تخلق منها قصة فنية لا مثيل لها .

ثانيا : أن من مقاصد القرآن الكريم تجزئته لأحداث القصة الواحدة في أكثر من موضع وأكثر من سورة ، والهدف الأساسي في ذلك عامل التحدي .

ثالثا : أن الترتيب السردي لأجزاء القصة والذي يخالف الترتيب الزمني لنزولها يحوي إعجازا أدبيا ، ودلاليا فإننا نري القاص من بني البشر لا يمكن أبدا أن يبدأ بنهاية القصة الواقعية إلا إذا كان قد عايشها ، أوعاين بعض أحداثها ، نعم في القصة الخيالية يمكن أن يحدث هذا ، ولكن أحداث القصة القرآنية كلها حقيقة ، وهنا يثبت ما بين القصة القرآنية وغيرها من اختلاف ، ؛ لأن القاص لا يمكن أبدا أن يكتب الجزء الأخير من قصة تاريخية حدثت ولم يشاهدها ، ليرجع بعد زمن

فيكتب الجزء الأول لتلك القصة ،إنه حينئذ يغامر بصدقه الواقعي ، والفني معا ولكن القرآن الكريم فعل ذلك ، فالجزء الأخير من قصة سيدنا زكريا – عليه السلام – وهي قصة تاريخية صادقة ورد في سورة مريم التي نزلت بمكة ثم بعد أن هاجر النبي –صلي الله عليه وسلم– إلي المدينة وبني دولته نزل الجزء الأول من القصة في سورة آل عمران المدنية فمن يا تري أعلم النبي –صلي الله عليه وسلم – بنهاية قصة تاريخية لم يشاهدها قبل بدايتها ، ثم عاد وأخبره بتفاصيل هذه البداية بعد ذلك بزمن ، مع كونه لم يسافر ، ولم ينتقل ، ولم يقرأ ، ولم يكتب إلا إذا كان هذا الأمر صادرا من الله الذي يعلم السر وأخفي !

رابعا : – يمثل التكرار في قصة سيدنا زكريا – عليه السلام – كما يمثل في غيرها من القصص ، أساسا من أسس العرض القرآني للقصة ، وعنصرا بارزا في بنائها ، وقد خضع وجود التكرار للهدف ، أو الغرض القصصي كما خضع لعوامل كثيرة تلقي دلالاتها علي عناصر القصة مجتمعة ، فتارة يعبر التكرار عن تكامل المعني بين مواطن القصة المختلفة ، وتارة يعبر عن التكامل الزمني وتتابعه في خط مستقيم إلي الأمام ، وتارة يعبر عن تلك الوحدة النفسية والشعورية أو الوحدة الكلية التي تربط بين مشاهد القصة جميعها في الموطن الواحد ، وتربط بين المواطن المختلفة للقصة في السور من جهة أخري ، دلالة علي وحدة المصدر والهدف .

خامسا : – السياق القرآني يختزل ويكثف معظم المشاهد والمواقف ، وامتازت الأحداث بكونها لا تجري في زمان ومكان خارجيين بما يمثل ومضات خاطفة ، ولمحات سريعة عبارة عن مشاهد مركزة خضعت للفكرة الأساسية في القصة وكان من نتيجة خضوعها لهذه الفكرة إحساسنا بتلك المشكلة التي عاناها

زكريا – عليه السلام – وعلو صوت الصراع بين الواقع المليء بالحرمان ، والأمل الذي تبعثه البشارة ، ومع هذا نحس بأن في تلك اللمحات الخاطفة من حياة نبي الله – زكريا –عليه السلام– غناء عن كل أحداث ومواقف تفصيلية لم تذكر وهي سمة من السمات المميزة لطريقة القرآن في عرضه لقصصه ٠

سادسا : – يحرص القرآن في طريقة بنائه للقصة علي تأكيد كل ما جاء بها من أحداث خارقة وقد تجلي هذا في أسلوب عرضها ، حتي فيما يخص اللغة من استخدام الفعل الماضي بكثرة والذي يفيد تحقق الوقوع ، والحسم ، والتأكيد ٠

سابعا : – عرض القرآن لنا القصة عرضا مبهرا متكاملا جذابا من حيث اختيار الأحداث المعبرة عن مضمون القصة ، أو اختيار الشخصيات المهمومة بنفس القضية التي تطرحها القصة ، وإجراء الحوار المعبر المؤثر ، واختيار المكان ٠

ثامنا:– امتازت الصورة الفنية في القصة بكونها متعددة التفاصيل من اللون والشكل ، والحركة ، مما أعطاها حياة متجددة ، وامتاز السياق القرآني بتصرفه في التراكيب ، ونظمها بطريقة إعجازية تصنع من كل جمله صورة رائعة معبرة وإن لم يستخدم فيها أدوات الصورة٠

تاسعا :– أن الزمن بين المشاهد القصصية المختلفة والمواطن المتعددة لا يتكرر ؛ لأنه يعبر عن الحقيقة التاريخية وبالتأمل الدقيق يتضح أن كل مشهد يضيف جديدا للبعد الزمني مثلما يضيف جديدا للعناصر الأخري ٠

هذه بعض النتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة وهناك نتائج كثيرة يمكن استخلاصها بالتأمل في السياق القرآني ، ولكن هذا ما جادت به قريحتي ،

فإن أكن قد وفقت فلله الفضل والمنة ، وإن يكن غير ذلك ؛ فمني ومن الشيطان وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ثبت بالمصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم ٠

ثانيا :

١ – أسس بناء القصة من القرآن الكريم : رسالة دكتوراه مقدمة لكلية اللغة العربية بالمنوفية ، للباحث ، محمد عبد الله عبده دبور ، ط – ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م .

٢– أسلوب المحاورة في القرآن الكريم : عبد الحليم الحفني ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٩٧هـ– ١٩٧٧م.

٣– بلاغة القرآن : الشيخ محمد الخضر حسين ، ط ، الأولي ، الحسينية للطبع والنشر د/ت ٠

٤– تاريخ الأمم والملوك : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ج١ ،ط ، بيروت ، الثالثة ، د/ت ٠

٥ – الجانب الفني في قصص القرآن الكريم : عمر محمد عمر باحاذق ، ط ، الأولي ، دار المأمون للتراث ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

٦– خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم – عليه السلام: الشحات محمد أبو ستيت ، ط ، الأولي، مطبعة الأمانة ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٧– روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني : الآلوسي ، ط دار إحياء التراث د/ت ٠

٨- الزمن في القرآن الكريم : د/ بكري أمين ، ط ، دار الكتاب الحديث ١٤٢١هـ-٢٠٠١م .

٩- الصورة الأدبية في القرآن الكريم : د / صلاح الدين عبد التواب ، ط ،الأولي ، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان) ١٩٩٥م.

١٠- الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ، ط ، الرابعة ، بيروت /لبنان ، ١٩٩١م٠

١١- القاموس المحيط : الفيروزابادي ، ط ، الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، د/ت٠

١٢- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : عبد الكريم الخطيب ، ط ، الثانية ، بيروت ، لبنان ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

١٣- القصة القرآنية : الخصائص والأهداف : علي حسن محمد سليمان ط ،الأولي ، مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٤- الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، ط ،السادسة ، دار صادر ، بيروت ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م .

١٥- كشف المعاني في المتشابه من المثاني : ابن جماعة ، ط ، الأولي ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري ، مكتبة العبيكان ، د/ ت٠

١٧– الكليات : أبو البقاء الكفوي ، ط ، الثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩هـ١٩٩٨م .

١٨– مختصر تفسير بن كثير : محمد علي الصابوني ، ط ، السابعة ، دار القرآن الكريم ، بيروت ١٤٠٢هـ – ١٩٨١م .

١٩– المختصر في أخبار البشر : أبو الفدا ، ط ، الأولي ، دار المعارف ١٩٩٨م .

٢٠– المعجزة الكبري القرآن : محمد أبو زهرة ، ط ، دار الفكر العربي د/ت .

٢١– مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي ، ط ، الخامسة ، دار الفكر ، بيروت ، د .ت .

٢٢– نظرات في قصص القرآن : السيد محمد قطب عبد العال ، رابطة العالم الإسلامي ،مكة المكرمة ، د/ت .

تم بحمد الله وتوفيقه ،،،